أقوالٌ عطراتٌ نيِّراتٌ في عُلُوِّ الهِمَّة

✍ لله درُّ سلفنا الصالح.. كلامهم قليل كثير البركة..

حَدِّثْ عن القوم فالألفاظ ساجِدَةٌ   خلف المحاريب والأوزانُ تبتَهِلُ

كلماتهم مؤمنات العبيرِ.. وأشعارهم قانتاتُ الزَّجَل..

أتاك كلام لا يملُّ سماعُه   شَهِيٌّ إلينا نثرُه ونظامُه

إذا ما سمعته الأُذْنُ كان نعيمَها   وزال عن القلب المُعَنَّى قتامُه

وهذه بعض العبارات الجميلة من كلامهم عن الهمة:

من درر كلام ابن الجوزي شيخ الوُعَّاظ في عصره:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من علامة كمال العقل علوُّ الهمَّة، والراضي بالدُّون دنيٌّ».

وَلَمْ أَرَ في عُيوبِ الناس عيبًا   كنقْص القادرين على التَّمام [(١)]

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ أعملَ فِكرَه الصافي؛ دَلَّه على طلب أَشرفِ المقاماتِ، ونهاهُ عن الرضى بالنَّقص في كل حال. وقد قال أبو الطيب المتنبي:

ولم أر في عيوب الناس عيبًا   كنقص القادرين على التمام

فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يُمكِنُه: فلو كانَ يُتصَوَّرُ للآدمي صعودَ السماوات لرأيتُ من أقبح النقائص رضاهُ بالأرض، ولو كانت النبوةُ تحصل بالاجتهاد؛ رأيت المقصِّرَ في تحصيلها في حضيضٍ؛ غير أنَّه إذا لم يُمِكنْ ذلك؛ فينبغي أن يطلبَ الممكنَ، والسِّيرة الجميلة عند الحكماء:

(١) «صيد الخاطر» (ص٤٣).

خروجُ النفس إلى غاية كمالِها الممكن لها في العِلْم والعمل..»، ثم قال: «ثم ينبغي له أن يطلب الغاية في العلم، ومن أقبح النَّقْص التقليدُ؛ فإن قويت هِمَّتُه؛ رَقَّتْه إلى أن يختار لنفسه مذهبًا ولا يتمذهب لأحدٍ، فإنَّ المقلِّدَ أعمى يقوده مُقَلِّدُهُ. ثم ينبغي أن يطلبَ الغاية في معرفة الله تعالى ومعاملتِهِ.

وفي الجملة؛ لا يتركُ فضيلةً يمكنُ تحصيلُها إلَّا حَصَّلها؛ فإن القنوعَ حالةُ الأرذال..

فَكُــنْ رَجُــلًا رجْلُــهُ في الثَّــرى ... وهامَـــةُ هِمَّتِـــهِ في الثُّرَيَّـــا

ولو أمكنك عبورُ كلِّ أحدٍ من العلماء والزهاد؛ فافعلْ؛ فإنهم كانوا رجالًا وأنت رجلٌ، وما قعدَ من قعدَ إلَّا لدناءة الهمَّة وخساستها.

واعلم أنك في ميدان سباق، والأوقاتُ تُنتَهبُ.

ولا تَخْلُد إلى كسل؛ فما فات ما فات إلَّا بالكسل، ولا نال من نال إلَّا بالجَدِّ والعزم، وإن الهمَّة لتغلي في القلوبِ غليان ما في القدور.

وقد قالُ بعضُ مَن سَلَفَ:

لــيسَ لي مــالٌ ســوى كَرَمــي ... فيـــه أحيـــا مـــن العَـــدَم

قَنِعَـــتْ نفـــسي بـــما رُزِقَـــتْ ... وتَمَطَّـــتْ في العُـــلا همـــي[1]

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما ابْتُلِيَ الإنسانُ قطُّ بأعظمَ مِن علوِّ هِمَّتِه؛ فإنَّ مَنْ عَلَتْ هِمَّتُه يختارُ المعالي، وربما لا يساعدهُ، وقد تَضْعُفُ الآلةُ، فيبقَى في عذاب. وإني أعطيتُ من علوِّ الهمَّة طَرَفًا؛ فأنا به في عذابٍ، ولا أقولُ: ليتَه لم يكُنْ؛ فإنَّهُ إنَّما يحلو العيشُ بقدْرِ عَدَم العقل، والعاقلُ لا يختارُ زيادة

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦).

اللَّذَةِ بنقصانِ العقل. ولقد رأيتُ أقوامًا يَصِفُون علوَّ هِمَمِهم، فتأمَّلْتُها، فإذا بها في فنٍّ واحدٍ، لا يُبالون بالنَّقْص فيما هو أهمُّ:

□ قال الرَّضِيُّ [1]:

وبلاءُ جسمي من تَفاوُتِ هِمَّتي ... ولِكُلِّ جِسْمٍ في النُّحولِ بَلِيَّةٌ

فنظرتُ؛ فإذا غايةُ أَمَلِهِ الإمارة.

وكان أبو مسلم الخراساني [2] في حال شبيبته لا يكادُ ينامُ، فقيل له في ذلك؟ فقال: ذِهْنٌ صافٍ، وهَمٌّ بعيدٌ، ونفسٌ تتوق إلى معالي الأمورِ؛ مع عيشٍ كعيشِ الهَمَجِ الرِّعاع! قِيل: فما الذي يُبْرِدُ غليلَك؟ قال: الظفر بالملك. قيل: فاطْلُبْه. قال: لا يُطلَبُ إلَّا بالأهوال. قيل: فاركب الأهوال. قال: العقلُ مانعٌ. قيل: فما تصنَع؟ قال: سأجعلُ من عقلي جهلًا، وأحاولُ به خَطَرًا لا يُنال إلَّا بالجهل، وأُدَبِّرُ بالعقل ما لا يُحْفَظ إلَّا به؛ فإن الخمولَ أخو العَدَم.

فنظرتُ إلى حال هذا المسكين؛ فإذا هو قد ضَيَّع أهم المهمَّات، وهو جانبُ الآخرة، وانتصب في طلب الولايات، فكم فَتَكَ وقَتَل حتى نال بعض مُرادِهِ مِن لذّات الدنيا! ثم لم يَتَنَعَّمْ في ذلك غير ثمان سنين، ثم اغتيل، ونَسِيَ تدبير العقل، فقُتِل ومضى إلى الآخرة على أقبح حالٍ.

□ وكان المتنبي يقول:

ومركُوبُه رِجْلاه والثَّوبُ جَلْدُهُ ... وفي الناس مَن يرضَى بِمَيْسورِ عَيْشِه

---

(١) الشريف، أبو الحسن، محمد بن الطاهر الحسيني، أشعر الطَّالبيين، كان شيعيًّا.

(٢) هو عبد الرحمن بن مسلم، صاحب الدعوة للعباسيين، وهازم جيوش الدولة الأموية.

ولكِــنّ قَلْبًــا بــين جَنْبَــيَّ مالَــهُ　　مــدىً ينتهــي بــه في مُــرادٍ أحُــدُّهُ
يَرَى جِسْمَه يُكْسَى شُفُوفًا تَرُبُّهُ　　فيختــارُ أن يُكْسَى دُروعًــا تَهُــدُّهُ

فتأمَّلْتُ هذا الآخرَ؛ فإذا نَهْمَتُه فيما يتعلَّق بالدنيا فَحَسْبُ.

ونظرتُ إلى عُلُوِّ هِمَّتي؛ فرأيتُها عَجَبًا، وذلك أنني أرومُ من العِلْم ما أتيقَّنُ أنِّي لا أَصِلُ إليه؛ لأنني أحبُّ نيْل كلِّ العلوم على اختلاف فنونِها، وأُريد استقصاء كلِّ فَنٍّ! هذا أمرٌ يَعجز العمرُ عن بعضِه.

فإن عَرض لي ذو هِمَّة في فنٍّ قد بلغ منتهاه؛ رأيته ناقصًا في غيره؛ فلا أعُدُّ همَّتَه تامَّه؛ مثلُ المحدِّث فاته الفقه، والفقيه فاته عِلْمُ الحديثِ، فلا أرضى بنقصان، العلوم إلَّا حادِثًا عن نقص الهِمَّة. ثم إني أرومُ نهاية العلم بالعَمَل، فأتوقُ إلى وَرَع بشْر وزهادة معروف! وهذا مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق ومعاشرتهم بعيد.

ثم إني أرومُ الغِني عن الخَلْق، وأستشرِفُ الإفضالَ عليهم! والاشتغَال بالعِلم مانعٌ من الكَسْب، وقَبول المِنن مما تأباه الهمَّة العالية.

ثم إني أتوقُ إلى طلب الأولاد كما أتوقُ إلى تحقيق التصانيف؛ ليَبْقَى الخَلَفان نائبيْن عني بعدَ التَّلَف! وفي طلب ذلك ما فيه من شُغْل القلب المحبِّ للتفرُّد.

ثم إني أرومُ الاستمتاع بالمستحسناتِ! وفي ذلك امتناعٌ من جهة قِلّة المال، ثم لو حَصَل؛ فَرَّقَ جَمْع الهِمَّة.. وكُلُّ ذلك جَمْعٌ بين أضدادٍ.

فأين أنا وما وصَفْتُه مِن حالِ من كانت غايةَ هِمَّتِه الدنيا؛ وأنا لا أُحبُّ أن يَخْدُشَ حصولُ شيءٍ من الدنيا وَجْهَ ديني بسبب، ولا أن يؤثِّرَ في عِلْمِي ولا في عَمَلي؟!

فوا قلقي من طلبِ قيام الليل وتحقيق الورع؛ مع إعادة العلم، وشُغْل القلب بالتصانيف، وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم! ووا أسفي على ما يفُوتني من المُناجاة في الخلوة؛ مع ملاقاةِ الناسِ وتعليمهم! ويا كَدَر الورعِ، مع طلب ما لا بُدَّ منه للعائِلة!

غير أني قد استسلمتُ لتعذيبي، ولعلَّ تهذيبي في تعذيبي؛ لأن عُلوَّ الهِمَّة تَطْلُب المعالي المقرِّبَة إلى الحق عَزَّ وَجَلَّ.

ورُبَّما كانت الحيْرَة من الطَّلَب دليلًا إلى المقصود.

وها أنذا أحفظ أنفاسي مِن أن يضيع نفَسٌ في غير فائدةٍ. وإن بلغ هَمِّي مرادَه، وإلَّا فنِيَّةُ المرءِ أبلغُ من عَمَلِه»[1].

◻ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خُلِقَت لي هِمَّةٌ عالية تطلبُ الغايات، فَعَلَت السِّنُّ وما بلغتُ ما أمَّلتُ! فأخذتُ أسأل تطويلَ العُمُر وتقويةِ البدن وبلوغَ الآمال. فأنكرتْ عليَّ العاداتُ، وقالت: مَا جَرَتْ عادةٌ بما تطلبُ. فقلتُ: إنما أطلبُ من قادرٍ يخرقُ العادات؛ وقد قيلَ لرجل: لنا حَوَيْجَةٌ، فقالوا: اطلبوا لها رُجَيْلًا. وقيل لآخر: جئناك في حاجة لا تَرْزَؤكَ[2]. فقال: هَلَّا طَلَبْتُ لها سفاسِفَ الناس! فإذا كان أهلُ الأَنَفَة من أرباب الدنيا يقولون هذا؛ فلم لا نطمعُ في فضل كريمٍ قادر؟!»[3].

◻ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العزائم في قلوب أربابها كالنار تشتعل، إنها لتستعمل البدن ولا يحس بالتعب. يغلبني شوقي فأطوي السري.

---

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٣٩٩- ٤٠٢) -طبع دار ابن خُزَيْمة.

(٢) لا ترزؤك: لا تنقصك ولا تتعبك.

(٣) «صيد الخاطر» (ص٤١٨- ٤١٩).

للعزائم رجال ليسوا في ثيابكم، وطَّنوا النفس على الموت فحصلت الحياة. لو رأيت ذا العزم قد برز في براز الجدّ، يمدَ عنانًا لم تخنه الشكائِمُ. فلمَّا عاين هولًا يلين له قلب الجبان حنّ إلى عودة المعجوم من الصلابة، فهو في صفِّ الجهاد أثبت قلبًا من القطب في الفلك. إن جنّ الليل لم تتصافح جفانه، لانتظاره القيام وقت السحر، وكيف ونملة الوادي تأبى له انتظار الوارد، فما مضى إلى قليل، وإذا به على قمّة المجد المؤثل جالس، من لم يقم في طلاب المجد بالجد، لم ينم في ظلال الشرف.

كُلُّ الصحابة هاجروا سرًّا، وعمر خرج ظاهرًا، وقال للمشركين: ها أنا أخرج إلى الهجرة، فمن أراد لقائي فليَلْقني في بطن هذا الوادي، «فليتَ رجالًا فيك قد نذروا دمى». من عزم عمر رضي الله عنه على طلاق الهوى، أخذ أهله من رؤية الدنيا، فكان بيته وهو أمير المؤمنين، كبيت فقير من المسلمين، تجمَّعت في فؤاده همم، ملأ فؤاد الزمان إحداها.

□ كان رضي الله عنه يقول: «لئن عشت لأدعنَّ أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى أحدٍ بعدي».

وهِمَّــة بعثتهــا همـــة رجـــل ... من تحتها بمكان القرب مـن زُحَـل

□ لما ولي عمر بن عبد العزيز سُمِع البكاءُ في داره، فقيل: ما لهَم؟ قيل: إنه خيّر النساء والجواري، فقال: من شاء فلتقم، ومن شاء فلتذهب، فإنه قد جاء أمرٌ شغلني عنكنَّ.. كلما قيل له: تَهَنَّ قد حُزْت المنى، قال: وأجزت المدى وا عجبًا أين العزائم.. إن العجز لشريك الحرمان، وإيثار الراحة يورث التعب..

والهــوْنُ في ظِـلِّ الهُوَيْنـا كـامنٌ ... وجلالــةَ الأخْطـارِ في الإِخطـارِ

اغسل وجه الجدِّ من غبار الكسل، وانفق كيس الصبر في طريق الفضائل.

إن كانت لك عزيمة فليس في لغة أولي العزم «ربما، وعسى».

ليس عزمًا ما مرض القلب فيه ... ليس همًّا ما عاق عنه الظلام [(١)]

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو عرفت منك نفسك التحقيق، لسارت معك في أصعب مضيق، لكنها أَلِفت التفاتك، فلما طلبت قهرًا فاتكْ. هلَّا شددت الحيازمْ، وقمتَ قيامَ حازم، وفعلتَ فعل حازم، وقطعت على أمرٍ جازم، تقصد الخيرَ ولكن ما تُلازِمْ..

ويعرف أخلاق الجبان جواده ... فيجهده كرًّا ويرهبه ذعرَا

ومَن يَحْلُ تِطْلاب المعالي بصدرِهِ ... يجدْ حُلْوَ ما يعطاهُ من غيرها مُرَّا

حريم العزم الصادق حرام على المتردِّد، متى تحزم العزم هُزم. لوْ رأيت صاحب العزم وقد سرى، حين رقدت السراحين، بهمَّة تحل فوق الفرقد، فلنفسه نفاسة، ولأنفه أنفة.. لاحت للقوم جادةُ السلوك فقالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] هيهات منك غبار ذلك الموكب.. ركبوا سفين العزم، فهبَّت لهم رياح العون، فقطعوا بالعلم لجج الجهل، فوصلوا إلى إقليم أرض الفهم، ورسوا على ساحل بلد الوصل» [(٢)].

خُذْ حديث القوم جملة:

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «شمَّر المتقون عن سوق الجدِّ في سوق المعاملة، كلما رأوا مراكب الحياة تخطِف العمر، شغلَهم هول ما هم فيه، عن التنزه في

---

(١) «اليواقيت الجوزية» لابن الجوزي (ص٨٤- ٨٥)- تحقيق اليدين عبد المقصود- مكتبة السُّنَّة..

(٢) «المدهش» (ص١٧٩).

عجائب البحر، فما كان إلَّا قليل حتى قدموا من السفر، فاعتنقتهم الراحة في طريق التلقِّي، فدخلوا بلدَ الوصل، وقد جازوا ربحَ الدهر. أملهم أقصرُ مِن فِتْر، منازلهم أقفرُ من قبر، أخبارهم أرقّ من نسيم السحر، آماقهم بالدموع الدائمة دامية، والهموم على الجوانج جوانح.

خذ حديث القوم جملة، واقنع بالعنوان.. كواكبُ هممهم في بروج عزائمهم سيّارة، ليس فيها زُحل، ناموا في الدجى على مهاد القلق، فلما جنّ الليل، جُن الحذِر، فاستيقظت عين ما تهنأت بطعم الرقاد..

كفى سائقًا بالشوق بـين الأضـالع ... لهيـبُ اشـتياقٍ ثـم فـيضُ مـدامِع

ركبوا عيس القصد وركبوا الجادة، فلما غنت الحُداة، رنَّت الفلاة، فعصفت رياح الزفرات من قلب المشوق، فلو رأيتَ وَكْف شؤونهم، قلتَ قد انقطع ثريان الغمام، هذا يعاتب نفسه على التقصير، وهذا يتفكر في هول المصير، وهذا يخاف من ناقد بصير. منازل تعبُّدهم متناوحة، وفي كل بيت منهم نائحة، تائبهم أبكى من متمم، ومحبهم أيْتم مرقَّش، ومشتاقهم أقلق من قيس، وكُلُّهم قد بات بليل النابغة»[(١)].

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «من تبصَّر تصبَّر، الحزم مطيَّة النُّجْح، الطمع مركب التلف، الكسل ابن عم الحسرة، ما يحصل برد العيش إلَّا بِحَرِّ التعب، ما العزُّ إلَّا تحت ثوب الكَدِّ، على قدر الاجتهاد تعلو الرتب. لما صابر النضو مشقّة السير، معرضًا عن أعراض المطاعم، زُيِّن بالجلال يوم العيد، ولما تكاسلت النجاتي، ميلًا إلى كثرة العلف، ووقع ببختها الذَّبْح، سابق الطير مُكرَّم، والديك الحاذق بالصياح مُطْلَق»[(٢)].

---

(١) «المدهش» (ص١٦١، ١٦٢، ١٦٣).

(٢) «المدهش» (ص١٧٤ - ١٧٥).

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا دنيَّ الهِمَّة أعجبتك خُضرة على مزبلة، فكيف لو رأيت فردوس المَلِك؟ قنعت بخسايس الحشائش والرياض معشبة بين يديك»(١).

شمروا عن سوق الجد في سوق العزائم:

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «لله درُّ العارفين بزمانهم، إذْ باعوا ما شانهم،بإصلاح شانهم، ما أقلّ ما تعبوا، وما أيسر ما نصِبوا، وما زالوا حتى نالوا ما طلبوا، شمَّروا عن سوق الجد في سوق العزائم، ورأوا مطلوبهم دون غيره ضربة لازم، جادُوا مخلصين فربحوا إذ خسر حاتم، وأصبحوا في منزل النجاة وأنت في اللهو نائم، يا رجالًا ما بانت رجوليتهم إلَّا بالعمائم، أين أنت من القوم؟ ما قاعدٌ كقائم، يا إخوان الأمل، قد بقي القليل وتفنى المواسم»(٢)..

فلا تحسبوا أن المعالي رخيصةٌ ولا أنَّ إدراك العُلَى هيِّنٌ سَهْلُ
فما كلُّ مَنْ يَسْعَى إلى المجد نالَهُ ولا كل مَن يهوى العلا نفسه تعلوُ

من تذكَّر حلاوة العاقبة، نسى مرارة الصبر. الرجوليَّة بالهِمَّة لا بالصورة، نزول همّة الكَسَّاح حَطَّهُ في بئر الأَنجاس(٣).

✍ **أخي:** «لا تكون الهمَّة الوافية إلَّا لنفسٍ نفيسة»(٤).

(١) «المدهش» (ص١٦٦).
(٢) المصدر السابق (ص١٦٩).
(٣) المصادر السابق (ص١٨٧، ١٨٨).
(٤) المصدر السابق (ص٤٩٣).

ثامن بنفسك واعل بهمتك:

«يا هذا عندك بضائع نفيسة: دموع ودماء، وأنفس وحركات، وكلمات ونظرات، فلا تبذلها فيما لا قدر له، أيصلح أن تبكي لفقد ما لا يبقى؟

أو تتنفَّس أسفًا على ما يفنى؟!!، أو تبذل مهجةً لصورة عن قليل تُمحَى؟!، أو تتكلم فيما يشين ويتوى؟! ويحك: دمعة فيك تطفئ غضب ربك، وقطرة من دم في الشهادة تمحو زللك، ونَفَس أَسَفٍ، ينسِف ما قد تَلَف وخطوات في رضا ربك تغسل الخطيئات، وتسبيحة تغرس لك أشجار الخُلْد، ونظرة بعبرة تثمر الزهد في الفاني»[1].

وثمن المعالي جد الطلب وعلو الهمَّة فثامن بنفسك واعرف قدرها.

بلايا أصحاب الهمم العالية:

□ قال ابن الجوزي: «أعظم البلايا أن: يُعطيَكَ هِمَّةً عالية، ويمنَعَك من العمل بمقتضاها، فيكون من تأثير همتك الأَنَفة من قبولِ إرفاق الخَلْق؛ استثقالًا لحَمْل مِنَنهم، ثم يبتليك بالفقر، فتأخذَ منهم!.. ويُقَوِّي تَوقَك إلى درجات العارفين والزهاد، ويُحوِجَك إلى مخالطة أرباب الدنيا!.

وهذا هو البلاء المبين

وأما الخسيس الهمَّة، الذي لا يستنكف من سؤال الخلق.. ويكتفي بيسير من العِلْم، ولا يتوق إلى أحوال العارفين؛ فذاك لا يُؤلمه فَقْدُ شيءٍ، ويرَى ما وجَدَ هو الغاية؛ فهو يفرح فرح الأطفال بالزخارف؛ فما أهون الأمرَ عليه!

---

(١) المصدر السابق (ص٤٩٤ - ٤٩٥).

إنما البلاء على العارف ذي الهمَّة العالية، الذي تدعوه همته إلى جميع الأضداد للتزيُّد من مقام الكمال، وتقصرُ عن مدارك مقصوده.

فياله من حال يَنفَدُ في طريقه زاد الصابرين! ولولا حالاتُ غفلة تعتري هذا المبتَلَى يعيش بها؛ لكان دوامُ ملاحظته للمقامات يُعمِي بَصَرَه، واجتهاده في السلوك يُحْفِي قَدَمَه.

لكنَّ ملاحظات الإمداد له -تارةً ببلوغ بعض مراده، وتارة بالغفلة عمَّا قصد- تُهوِّن عليه العيش. وهذا كلامٌ عزيز؛ لا يفهمه إلَّا أربابه، ولا يعلم كنهه إلَّا أصحابه»(١).

خسيس الهِمَّة المختار عاجل الهوى على آجل الفضائل:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «من نازعته نفسُه إلى لذة محرَّمَة، فشغله نظره إليها عن تأمُّل عواقبها وعقابها، وسمع هتاف العقل يناديه: وَيْحَك! لا تفعلْ! فإنك تَقِفُ عن الصُّعودِ، وتأخُذُ في الهبوطِ، ويُقالُ لك: ابقَ بما اخترتَ! فإن شَغَلَهُ هواه، فلم يلتفت إلى ما قيل له؛ لم يزل في نزولٍ، وكان مَثَلُهُ في سوء اختياره كالمثل المضروب: أن الكلبَ قال للأسد: يا سَيِّد السِّباع! غيِّر اسمي؛ فإنه قبيحٌ. فقال له: أنت خائنٌ لا يَصْلحُ لك غيرُ هذا الاسم. قال: فجَرِّبْني. فأعطاه شِقَّة لحم، وقال: احفظْ لي هذه إلى غدٍ؛ وأنا أُغيِّر اسمَكَ. فجاعَ، وجعل يَنْظُرُ إلى اللحم ويَصْبِرُ، فلما غَلَبَتْه نفسُه؛ قال: وأيُّ شيء باسمي؟! وما كلبٌ إلَّا اسم حسن. فأكل! وهكذا الخسيس الهمَّة، القَنُوعُ بأقلِّ المنازل، المختارُ عاجلَ الهوى على آجل الفضائل. فالله الله في حريق الهوى إذا ثار! وانظر كيف تُطفِئُهُ؟ فَرُبَّ زَلَّةٍ أوقعتْ في بئر

(١) «صيد الخاطر» (ص٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥).

بَوارٍ، ورُبَّ أثرٍ لم ينقلعْ، والفائت لا يُستَدْرَكُ على الحقيقة.

فابعُدْ عن أسباب الفتنة؛ فإن المقاربَةَ محنَةٌ لا يكادُ صاحبها يسلَمُ (١)

لا تُنال المعالي إلا بشق الأنفس وعلو الهمة :

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «تأمَّلت عَجَبًا، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ نفيس خطيرٍ يطولُ طريقُهُ ويكْثُرُ التَّعَبَ في تحصيله.

فإنَّ العِلْمَ لَمَّا كانَ أشرف الأشياءِ، لَمْ يَحْصُل إلَّا بالتَّعَب والسَّهَرِ والتَّكْرارِ وهَجْرِ اللَّذَّاتِ والرَّاحَةِ، حتى قال بعضُ الفقهاء: بَقيتُ سِنينَ أشتهي الهريسةَ لا أَقْدِرُ؛ لأنَّ وقتَ بيعِها وقتُ سماع الدرسِ!

ونحو هذا تحصيلُ المالِ؛ فإنَّه يحتاجُ إلى المخاطراتِ والأسفارِ والتَّعَب الكثير. وكذلك نيْلُ الشَّرَفِ بالكرم والجُود؛ فإنَّهُ يفتقِرُ إلى جهاد النفس في بذل المحبوب، وربما آل إلى الفقر.

وكذلك الشجاعة؛ فإنها لا تحصُل إلَّا بالمخاطرة بالنَّفْس.

□ قال الشاعر:

لـوْلا المَـشَقَةُ سـادَ النـاسُ كُلُّهُـمُ ... الجـودُ يُفقِـرُ والإقـدامُ قَتَّـالُ

ومِن هذا الفنِّ تَحْصيلُ الثواب في الآخِرة؛ فإنَّه يزيدُ على قَدْر قوّة الاجتهاد والتعبُّدِ، أوْ على قَدْرِ وقْع المبذولِ من المال النفس، أو على قَدْر الصَبْر على فَقْد المحبوب ومنع النفس من الجَزَع.

وكذلك الزهد يحتاجُ إلى صَبْر عن الهوى.

والعفافُ لا يكونُ إلَّا بِكَفِّ كَفِّ الشَّرَهِ. ولو لا ما عانى يوسفُ

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٣٢٦، ٣٢٧).

عليه السلام؛ مَا قيلَ له: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦]. ولله أقوامٌ ما رَضُوا من الفضائِل إلَّا بتحصيل جميعِها؛ فهم يُبالِغون في كلِّ عِلم، ويجتهدونَ في كلِّ عَمَل، ويُثَابِرون على كلِّ فضيلةٍ؛ فإذا ضَعُفَتْ أبدانُهُم عن بعض ذلك؛ قامَتِ النِّيَّاتُ نائبةً، وهُمْ لها سابقون. أكْمَلُ أحوالِهم إعراضُهُم عن أعمالِهم؛ فهُم يحتقِرونها مع التَّمامِ، ويعتذِرون مِن التقصير. ومِنهم مَن يزيدُ على هذا، فيتشاغَلُ بالشُّكْر على التوفيق لذلكِ. ومنهم من لا يَرَى مَا عَمِل أصْلًا؛ لأنَّه يرى نَفْسَهُ وَعَمَله لسيِّدِهِ.

وبالعكس مِن المذكور من أرباب الاجتهاد حالُ أهلِ الكَسَل والشَّرَه والشَّهواتِ؛ فَلَئِن التذُّوا بعاجِلِ الرَّاحَةِ؛ لقد أَوْجَبتْ ما يزيدُ على كُلِّ تعبٍ من الأَسَفِ والحسرةِ.

ومَن تَلَمَّح صَبْرَ يوسفَ عليه السلام وعَجَلة ماعِز[1]؛ بان له الفرْقُ ولقد تأمَّلْتُ نَيْل الدُّرِّ مِن البَحْرِ، فرأيتُهُ بعدَ معاناةِ الشدائِدِ.

ومَن تفكَّر فيما ذكرتُه مَثَلًا؛ بانتْ له أمثالٌ[2].

* فالموفَّقُ من تَلَمَّح قِصَر الموسم المعمول فيه، وامتدادِ زمن الجزاءِ الذي لا آخرَ له، فانتِهبَ حتى اللحظَةَ، وزاحَم كُلَّ فضيلة، فإنها إذا فاتتْ؛ فلا وَجْه لاستدراكها. أَوَ لَيْسَ في الحديث: «**يُقالُ للرَّجُل: اقرأ**

---

(١) هو ماعز بن مالك الأسلمي الذي جاء إلى النبي ﷺ معترفًا بزناه، وقصته في «الصحيحين». انظر «صحيح البخاري» (٨٦- كتاب الحدود، ٢١، ٢٢، ٢٥ و٢٨ و٢٩- باب)، و«صحيح مسلم» (٢٩- كتاب الحدود، ٥- باب من اعترف على نفسه بالزنى، (٣/١٣١٨/ ١٦٩١- ١٦٩٥)، وقد شهد له النبي ﷺ بالتوبة الصادقة إذ قال ﷺ: «**لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم**».

(٢) «صيد الخاطر» (ص٤٤٥- ٤٤٧).

وارقَ؛ فمنزلُكَ عند آخر آيةٍ تقرؤُها»[١].

فلو أنَّ الفِكْرَ عَمِلَ في هذا حقَّ العمل؛ حَفِظَ القرآن عاجلًا»[٢].

جَمْعُ الهَمِّ وعُلُوّ الهمة:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «هيهات أن يجتمع الهمُّ مع التلبُّس بأمور الدنيا! خصوصًا الشاب الفقير الذي قد أَلِفَ الفقر؛ فإنه إذا تزوَّج، وليسَ له شيء من الدنيا؛ اهتمَّ بالكسب، أو بالطلب من الناس، فَتَشتَّتَتْ همَّتُه، وجاءَه الأولادُ، فزاد الأَمْرُ عليه، ولا يزال يُرَخِّصُ لنفسه فيما يُحصِّل إلى أن يتلبَّس بالحرام.

ومَن يُفكِّر؛ فهمَّتُه ما يأكل، وما يأكله أهله، وما ترضى به الزوجة من النفقةِ والكسوةِ، وليس له ذلك؛ فأيُّ قلب يحضُرُ له؟! وأي همٍّ يجتمعُ؟!

هيهاتَ! والله؛ لا يجتمع الهمُّ؛ والعينُ تنظُرُ إلى الناس، والسمْعُ يسمَعُ حديثهم، واللسان يخاطبِهُم، والقلب متوزِّعٌ في تحصيل ما لا بُدَّ منه. فإِن قَال قائِلٌ: فكيف أصنعُ؟!

---

(١) حسن صحيح: رواه أحمد (٢/ ١٩٢)، وأبو داود (٢- كتاب الصلاة، ٢٠- باب استحباب الترتيل في القراءة، (١/ ٤٦٣/ ١٤٦٤)، والترمذي (٤٦- كتاب فضائل القرآن، ١٨- باب، (٥/ ١٧٧/ ٢٩١٤)، وابن حبان (٢/ ٤٣/ ٧٦٦)، والحاكم (١/ ٥٥٢)، والبغوي (٣/ ٤٣٥/ ١١٧٨)؛ من طريق سفيان الثوري، عن عاصم، عن زر بن حبيش، عن عبد الله بن عمرو.. فذكره مرفوعًا.

وهذا سند حسن من أجل عاصم، وهو ابن أبي النجود؛ صدوق له أوهام.

وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». وسكت عنه الحاكم. وصححه الذهبي. وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) «صيد الخاطر» (ص٤٤٥- ٤٤٨).

قلتُ: إِنْ وجدتَ ما يكفيك من الدنيا، أو معيشة تَكُفُّك، فاقْنَع بها، وانفرد في خَلْوةٍ عن الخلق مهما قَدَرْتَ، .. إنْ تزوَّجت؛ فبفقيرة تقنَع باليسير، وتصبر أنت على صورتها وفقرها، ولا تترك نفسَك تطمع إلى من تحتاج إلى فضل نفقَته؛ فإن رُزِقت امرأة صالحة جَمعتْ همَّكَ؛ فذاكَ، وإن لم تَقْدِرْ؛ فمعالجة الصبر أصلحُ من المخاطرة.. وإياك والمستحسناتِ، فإنَّ صاحبهن -إذا سَلِم- كعابد صَنَم.. وإذا حصل بيدك شيءٍ؛ فأنفق بعضَه؛ فبحفظ الباقي تحفظ شتات قلبك.. واحذر كلَّ الحذر من هذا الزمان وأهله؛ فما بقي مُواسٍ ولا مُؤثر ولا من يَهْتَمُّ لِسَدِّ خَلَّةٍ[١]، ولا مَن لَوْ سُئِلَ أعطَى؛ إلّا أن يُعْطِيَ نَزْرًا بتضجُّرٍ ومنَّةٍ يستعبدُ بها المُعطِي بقيَّة العُمُر ويستثقِلُه كلَّما رآه، أوْ يستدعي بها خدمتَهُ له والتردُّد إليه..

وإنما كان في الزمان الماضي مثلُ أبي عمرو وبن نُجَيْدٍ، سمع أبا عثمان الحيريَّ يقولُ يومًا على المنبر: عليَّ ألفُ دينارٍ، وقد ضاقَ صدري، فمضى أبو عمرٍو إليه في الليل بألفِ دينارٍ، وقال اقضِ دَيْنَك! فلمَّا عادَ وصَعِد المنبَر؛ قال: نَشْكُرُ الله لأبي عمرٍو؛ فإنَّه أراحَ قلْبي وقضى ديْني.. فقام أبو عمرٍو فقال: أيها الشيخ! ذلك المال كان لوالدتي، وقد شقَّ عليها ما فعلتُ؛ فإنْ رأيت أن تتقدَّم بردِّه؛ فافعل. فلمَّا كان في الليل؛ عادَ إليه وقال له: لماذا اشَهَرْتَني بين الناس؟! فأنا ما فعلتُ ذلك لأجل الخَلْق فخذْهُ ولا تَذْكُرْني![٢].

---

(١) الخَلَّة: الحاجة.

(٢) أبو عمرو بن نجيد؛ هو الشيخ الإمام، القدوة، المحدِّث الرباني، شيخ نيسابور ومسند خرسان، وُلِد سنة ٢٧٢هـ وتوفىٰ سنة ٣٦٥هـ. انظر ترجمته في «سير =

ماتوا وغُيِّب في التراب شُخوصُـهم والنَّـشْرُ مِـسْكٌ والعظـام رمـيمُ

فالبُعد البُعْد عمَّن هِمّتُه الدنيا؛ فإنَّ زادهُمُ اليومَ إلى أن يَحْصُلَ أقربُ منه إلى أن يُؤثَرَ.. ولا تكادُ ترى إلَّا عدوًّا في الباطن، صديقًا في الظاهر، شامِتًا على الضُّرِّ، حسودًا على النعمةِ.

فاشترِ العزلة بما بيعتْ؛ فإنَّ مَنْ له قلبٌ إذا مشى في الأسواقِ وعادَ إلى منزله؛ تغيَّر قلبُهُ؛ فكيفَ إنْ عرْقَلَهُ بالمَيْل إلى أسباب الدُّنيا؟!

واجتهدْ في جمع الهَمَّ بالبُعْد عن الخَلْقِ، ليتخْلُو -القلبُ بالتفكُّر في المآبَ، وتتلمح- عينُ البصيرة خِيَم الرحيل!»[1].

مخالطة الناس تُظلِمُ القلبَ وتُشَتِّتُ الفِكر وتجمَعُ الهَمَّ:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «لا يصفو التعبُّدُ والتزهُّدُ والاشتغال بالآخرة إلَّا بالانقطاع الكُلِّيِّ عن الخَلْق؛ بحيثُ لا يُبْصِرُهم ولا يسمعُ كلامهم إلَّا في وقت ضرورةٍ، كصلاةِ جُمُعَةٍ، أو جماعة، ويحترزُ في تلك الساعاتِ منهم.

وإن كان عالِمًا يريدُ نَفْعَهم، وَعَدَهُم وقتًا معروفًا، واحترزَ في الكلام معهم. وأمَّا من يمشي في الأسواقِ اليومَ، ويبيع ويشتري مع هذا العالم المظلِم، ويرى المنكراتِ والمستهجَناتِ؛ فما يعودُ إلى البيت إلَّا وقد أظلَمَ القلبُ.

أعلام النبلاء» (١٦/ ١٤٦) وأما أبو عثمان الحيري؛ فهو الشيخ الإمام المحدث، الواعظ القدوة، سعيد بن إسماعيل النيسابوري وُلِد سنة ٢٣٠هـ، وتوفي سنة ٢٩٨هـ. وترجمته في «السير» (١٤/ ٦٢) والخبر أورده الذهبي في «السير» (١٦/ ١٤٦)، ولم يكن المال لدِيْن، وإنما كان يجمع لبعض الثغور.

(١) «صيد الخاطر» (ص٥٨٠- ٥٨٢).

وقد كان جماعةٌ من السَّلَف يبيعون ويشترون ويحترِزون، ومع هذا؛ ما صفَا لصافيهم وقتٌ حتى قاطعَ الخَلْق.

□ قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «زاولتُ العبادَة والتجارة فلم يجتمِعا، فاخترتُ العِبادة»، فمن قَدَر على الحِمْيَة النافِعة، واضطُرَّ إلى المخالطة والكسبِ للعائلة؛ فليتحرّزِ احترازَ الماشي في الشوكِ، وبعيدٌ ملامتُه»[1].

عُلوهمة أولياء الله الصالحين، والكمال في العِلْم والعَمَل:

□ قال ابن الجوزي رحمه الله: «تأمَّلْتُ الذين يختارُهُم الحقُّ عز وجل لولايته والقربِ منه -فقد سَمِعْنَا أوصافَهم ومن نظنُّه منهم ممن رأيناه-، فوجدتُه سبحانه لا يختارُ إلَّا شخصًا كاملَ الصورة، لا عيبَ في صورتِه، ولا نقْصَ في خِلْقَتهِ، فتراهُ حسنَ الوجه، معتدلَ القامةِ، سليمًا من آفةٍ في بدَنِهِ، ثم يكونُ كامِلًا في باطنهِ، سخِيًّا، جوادًا، عاقلًا، غيرَ خَبٍّ، ولا خادعٍ ولا حقودٍ، ولا حسودٍ، ولا فيه عيبٌ من عُيوب الباطنِ؛ فذاك الذي يُرَبَّى مِن صِغَرِه فتراه في الطفولة معتزلًا عن الصِّبيان، كأنَّه في الصِّبا شيخٌ، يَنْبُو[2] عن الرذائل، ويفزع من النقائص ثم لا تزالُ شجرةُ هِمَّتِه تنمو حتى يرى ثَمَرَها متهدِّلا على أغصانِ الشباب، فهو حريصٌ على العِلْم، منكمِشٌ على العَمل، محافظٌ للزمان، مُرَاعٍ للأوقاتِ، ساعٍ في طلب الفضائِلَ، خائِفٌ من النقائص.

ثم ينقسِمُ هؤلاء؛ فمنهم من تفقَّه على قدَم الزُّهْدِ والتعبُّد، ومنْهُم من تفقَّه على العِلْم واتباع السُّنَّة، ويندرُ منهم من يَجمَع اللهُ له الكُلَّ ويُرَقِّيه إلى

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٦٤١- ٦٤٣).

(٢) ينبو: يتجافىٰ ويبتعد.

مزاحمةِ الكامِلِينَ.

وعَلَامَةُ إثبات الكمالِ في العِلْم والعَمَل: الإقبالُ بالكُلِّيةِ على معاملةِ الحقِّ ومحبَّتِه، واستيعابِ الفضائِل كلِّها، وسَناءُ الهِمَّة في نُشدانِ الكمالِ الممكنِ؛ فلو تُصُوِّرَتِ النبوَّةُ أن تُكسَبَ؛ لدخلتْ في كَسْبِه.

ومراتِبُ هذا لا يحتملُها الوصفُ، لكونِهِ دُرَّةَ الوجودِ، التي لا تكادُ في الصَّدَف إلَّا في كلِّ ودودٍ.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ توفيقنا لِمَراضِيه وقربِه، ونعوذُ بالله مِن طردِه وإبعاده»[١].

هِمَّة المؤمن وقلبه متعلِّقان بالآخرة:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هِمَّة المؤمن متعلِّقة بالآخرة؛ فكلُّ ما في الدنيا يُحَرِّكُهُ إلى ذِكر الآخرة، وكُلُّ مَنْ شَغَلَهُ شيءٌ؛ فِهمَّتُهُ شغلُه.

والمؤمن إذا رأى ظُلمةً؛ ذَكَر ظلمةَ القبورِ، وإِن رأى مُؤْلِمًا؛ ذكرَ العقابَ، وإِن سَمِع صوتًا فظيعًا؛ ذكرَ نفخةَ الصُّورِ، وإِنْ رأى الناسَ نيامًا، ذَكَر الموتى في القبور، وإِنْ رأى لَذَّة؛ ذكَر الجَنَّة؛ فَهِمَّتُه مُتعلِّقةٌ بما ثَمَّ، وذلك يشغله عن كُلِّ ما ثَمَّ.

وأعظمُ ما عِنْده أنه يتخايلُ دوامَ البقاءِ في الجَنَّةِ، وأن بقاءَه لا ينقطع ولا يزال ولا يعتريه مُنغِّصٌ، فيكادُ إذا تخايل نفسَه متقلِّبًا في تلك اللَّذَّاتِ الدائمة التي لا تفنى يطيش فَرَحًا، ويسهُلُ عليه ما في الطريق إليها؛ من ألمٍ، ومَرضٍ، وابتلاءٍ، وفقدِ محبوبٍ، وهُجوم الموتِ، ومعالجةِ غُصَصِهِ؛

(١) «صيدُ الخاطِر» (ص٥٨٣ - ٥٨٤).

فإنَّ المشتاقَ إلى الكعبة يهونُ عليه رَمْلُ زَرُود [١]، والتائِقُ إلى العافية لا يُبالي بمرارة الدواء، ويعلمُ أنَّ جَوْدَة الثَّمَر ثَمَّ على مقدارِ جَوْدة البذْر ها هُنا؛ فهو يتخيَّرُ الأجْوَد، ويغتنم الزرَع في تشرين العُمُر من غير فُتور. ثم يتخايلُ المؤمنُ دخولَ النار والعقوبة، فيتنغَّصُ عيشه ويقوى قلقُه. فعندَه بالحاليْنِ شُغْلٌ عن الدنيا وما فيها، فقلبُه هائمٌ في بيداءِ الشَّوْقِ تارة، وفي صحراء الخوف أخرى؛ فما يرى البنيان.

فإذا نازله الموتُ، قوي ظنُّه بالسلامة، ورجا لنفسه النجاة، فيهون عليه. فإذا نزل إلى القبر، وجاءه مَنْ يسألونه؛ قال بعضهم لبعض: دعوه فما استراح إلَّا الساعةَ.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ يقظةً تامَّةً؛ تُحرِّكُنا إلى طلب الفضائِل، وتمنعنا من اختيار الرذائل، فإنه إنْ وَفقَ، وإلَّا؛ فلا نافع»[٢].

عالي الهمَّة لا يطلب إلا الأرفعَ:

□ قال ابن الجوزي: «ما أعرفُ العيشَ إلَّا لِمَن يعرفُه جَلَّ شأنُه، ويعيشُ معهُ، ويتأدَّبُ بين يديْهِ في حركاتِه وكلماتِه كأنَّه يراهُ، ويَقِفُ على بابَ طرْفِه حارِسًا مِن نظرَةٍ لا تَصْلُحُ، وعلى باب لسانِه حافِظًا له من كَلِمَةٍ لا تَحْسُنُ، وعلى باب قلبه حمايةً لمسكنِهِ من دُخولِ الأغيارِ، ويستوحِشُ مِن الخَلْقِ شغْلًا به. وهذا يكونُ على سيرة الرُّوحانيين.

فأمَّا المخلِّطُ؛ فالكَدَرُ غالِبٌ عليه. والمحقُّ لا يطلبُ إلَّا الأرفعَ.

---

(١) بادية كثيرة الرمل في طريق مكة.

(٢) «صيد الخاطر» (ص٦٤٤- ٦٤٥).

□ قال قائل:

أَلَا لا أُحِبُّ السَّيْرَ إِلَّا مُصَاعِدًا ... ولا البَرْقَ إِلَّا أن يكونَ يمانِيَا[1]

عُلُوُّ هِمَّةِ السَّلَفِ وتقاصر همم الخَلَف:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانت هِمَم القدماءِ من العُلَماءِ عَلِيَّةً، تدلُّ عليها تصانيفُهم التي هي زُبْدةُ أَعْمارهم؛ إلَّا أنَّ أكثرَ تصانيفهم دَثَرَتْ؛ لأَنَّ هِمَم الطُّلَّاب ضَعُفَتْ، فصاروا يطلبون المختصراتِ، ولا يَنْشِطُون للمطوَّلات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به مِن بعضِها، فدَثَرَت الكتبُ، ولم تُنسَخْ!

فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطِّلاع على الكتب التي قد تخلَّفتْ من الصنَّفات، فليُكثر من المطالعة، فإنه يرى من علوم القوم وعلوِّ هممهم ما يَشْحَذُ خاطِرَهُ ويُحرِّك عزيمته لَلجدِّ، وما يخلو كتابٌ من فائدةٍ.

وأعوذُ بالله من سِيرَ هؤلاء الذين نعاشِرهم[2]! لانرى فيهم ذا هِمَّةٍ عاليةٍ فيقتدي بها المُبتدي، ولا صاحبَ ورعٍ فيستفيدُ منه الزاهِدُ.

فالله الله! وعليكم بملاحظة سير السلف ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، فالاستكثار من مُطالعة كُتُبهم رؤيةٌ لهم؛ كما قال:

فاتني أنْ أرى الدِّيارَ بطَرْفي ... فَلَعَلِّيَ أرى الديار بسمْعي

وإني أخبِرُ عن حالي: ما أَشبعُ من مُطالعة الكُتُب، وإذا رأيتُ كتابًا لم أره؛ فكأني وقعتُ على كنزٍ، ولقد نظرتُ في ثبت الكتب الموقوفة في

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٧٠٠ - ٧٠١).

(٢) هذا في زمان ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ، فكيف في زماننا!!!.

المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على ستة آلاف مجلَّدٍ، في ثبت كتب أبي حنيفة وكتب الحُمَيدي [(١)] وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر وكتب أبي محمد بن الخشَّاب وكانت أحمالًا.. وغير ذلك من كُلِّ كتابٍ أقدِرُ عليه، ولو قلتُ: إني طالعتُ عشرين ألف مجلَّدٍ؛ كان أكثر، وأنا بَعْدُ في الطَّلَب! فاستفدتُ بالنظر فيها من ملاحظةِ سير القوم وقدْر هِمَمِهم وحِفْظِهم وعباداتهم وغرائب علومِهم ما لا يعرفُه من لم يُطالِعْ، فصرتُ أستزري ما الناسُ فيه وأحتقِرُ هِمَم الطُّلَّاب، ولله الحمدُ» [(٢)].

إذا كانت الهمم عَلِيَّة:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن رُزق هِمَّة عالية؛ يُعَذَّبُ بمقدار عُلُّوها!

كما قال الشاعر:

وإذا كانــت النُّفُــوسُ كِبــارًا ... تَعِبَــتْ في مُرادهَــا الأجْــسامُ

وقال الآخر:

وَلكُــلِّ جــسيم في النُّحــولِ بَلِيَّــةٌ ... وبلاءُ جـسمي مـن تفـاوتِ هِمَّتـي

وبيانُ هذا أنَّ مَن عَلتْ هِمَّتُهُ؛ طلبَ العلوم كلَّها، ولم يقتصرْ على بعضِها، وطلبَ مِن كُلِّ عِلْمٍ نهايتَهُ، وهذا لا يحتمله البدنُ.

ثم يَرى أن المراد العملُ، فيجتهد في قيام الليل وصيامِ النهار، والجمع

(١) هو محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي، الأندلسي، الفقيه، وُلِد قبل سنة ٤٢٠هـ، واستوطن بغداد، وتوفي سنة ٤٨٨هـ. وقد وقف كتبه. انظر «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ١٢٠).

(٢) «صيد الخاطر» (ص٧٠٦- ٧٠٧).

بين ذلك وبين العلم صَعْبٌ.

ثُم يَرى ترْك الدنيا ويحتاجُ إلى ما لا بُدَّ منه، ويُحِبُّ الإيثار ولا يقدِرُ على البُخْل ويتقاضاهُ الكرمُ البذْل ويمنعه عزُّ النفْس عن الكسْب من وجوه التبـذُّل[١]؛ فَإِنْ هُو جَرَى على طبْعِهِ مِن الكَرَم؛ احتاج وافتقر وتأثَّر بدنُه وعائلتُه، وإنْ أَمْسَك؛ فطبعُه يأبى ذلك.

وفي الجملة؛ يحتاجُ إلى معاناةٍ وجمع بين أَضدادٍ؛ فهو أبدًا في نَصَبٍ لا ينقضي وتَعَبٍ لا يَفْرَغُ.

ثم إذا حقَّق الإخلاص في الأعمال؛ زاد تعبُهُ وقَوِي وَصَبُه[٢].

فأين هو وَمَن دَنَتْ هِمَّتُه؟!

إنْ كان فقيهًا، فسُئِل عن حديثٍ؛ قال: ما أعرِفُه! وإن كان مُحَدِّثًا، فسُئِل عن مسألة فقهيَّة؛ قال: ما أدري! ولا يُبال إنْ قيل عنه: مُقَصِّرٌ!!

والعالي الهمَّة يرى التقصيرَ في بعض العلوم فضيحةً قد كشفَتْ عَيْبَهُ وقد أرتِ الناس عوْرَتَهُ.

والقصير الهمَّة لا يُبالي بمننِ الناسِ، ولا يستقبِحُ سؤَالَهم، ولا يأنفُ مِن ردٍّ!! والعَالي الهِمَّة لا يَحْمِل ذلك.

ولكنَّ تَعَبَ العالي الهمَّةِ راحةٌ في المعنى، وراحة القصير الهِمَّةِ تَعَبٌ وشِيْنٌ؛ إنْ كان ثَمَّ فَهْمٌ.

والدنيا دارُ سباقٍ إلى أعلى المعالي؛ فينبغي لذي الهمَّةِ أَن لا يُقصِّرَ في

---

(١) التبذُّل: ترك التصاون والترفُّع.

(٢) الوَصَب: المرض والتعب.

شوْطِه؛ فإن سَبَقَ؛ فهو المقصودُ، وإن كَبا جوادُه مع اجتهادِه؛ لَمْ يُلَمْ»[١].

علو الهمة والاجتهاد في الطاعة يُدرك بها النعيم في الآخِرة:

□ قال ابن الجوزي: «ما وصلَ القومُ إلى المنزل إلّا بعد طول السُّرَى، ما نالوا حلاوة الراحة إلّا بعد مرارة التعَّب».

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا تلاقحت غروسُ المجاهدة تلاقحت ثمار المدائح..

أفلح قومٌ إذا دعوا وثبوا ... لا يحسَبون الأخطارَ إن ركبوا

سارُون لا يسألون ما فعل ... الفجرُ ولا كيف مالت الشهبُ

عوَّدهم هجرُهم مطالبةَ ... الراحةِ أن يظفَروا بما طلبوا

أشرافُ الأوصاف أوصاف الأشراف، ساداتُ العادات عادات السادات، أحرارُ الشيم شيم الأحرار، أقدموا على الفضائل وتأخَّرت، وقدَّموا الأهمَّ وأخَّرت، الشجاع يلبس القلب على الدرع، والجبان يلبس الدرع على القلب..

وتكاد الظبا لما عوَّدوها ... تنتضي نفسَها إلى الأعناقِ

وإذا أشفق الفوارسُ من وقع ... القنا أشفقوا من الإشفاق

ومعالٍ لو ادعاها سواهم ... لزمته جنايةُ السرَّاق

لُوِّحَ للقوم فأجابوا وكُرِّرَ الصياح بك، وما تلتفت، إذا سمعوا موعظةً غرست في قلوبهم نخيل العزائم، ونباتُ عزمك عند الزواجر كنبات الكشوت[٢]. لو صدق عزمُك، قذفتك ديارُ الكسل إلى بيداء الطلب،

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٧٢٨- ٧٢٩).

(٢) نبات الكشوت: نبت يتعلّق بالأغصان ولا عِرْق له في الأرض.

كان سلمانُ أعجميًّا، فلما سمع بنبيٍّ عربي صار بدويَّ القلب.

أين وصفُك من هذه الأوصاف، أين شجرة الزيتون من شجرة الصفصاف، صعد القوم ونزلت، وجدُّوا في الجِدِّ وهزلت..

شم العرانين في آنافهم أنفٌ ... من القبيح وفي أعناقهم صِيد

إِن تلقهم تلقَ منهم في مجالسهم ... قومًا إذا سُئِلوا جادُوا بها وَجَدُوا

نالُوا السماءَ وحَطُّوا من نفوسهمُ ... إِنَّ الكرام إذا انحطُّوا فقد صعدوا

كانوا في طلب العلا يجتهدون، ولا يَرضَوْن بدُون، على أنهم يعانُون فيما يعانون، القوم مع الحق حاضرون، وعن الخلْق غائبون، فقالوا لعاذليهم لِمَن تعذلون.

كُثُرٌ فيك اللُّوَّمُ ... فأين سمعي منهُمُ

قالوا سهرتَ والعيونُ ... الساهراتُ نُوَّمُ

وليسَ من جسمكَ ... إلَّا جِلْدَةٌ وأَعْظُمُ

وما عليهم سَهَرِي ... ولا رُقاد عليهُمُ

وهل سماتُ الحبِّ ... إلَّا سَهَرٌ وسَقَمُ

خُذْ أنتَ في شأنِكَ ... يا دمعي وخلِّ عَنْهُمُ

□ كان بشر لا ينام الليل، ويقول: «أخاف أن يأتي أمرٌ، وأنا نائم».

رَقد السُّمَّارُ وأَرَّقَهُ ... هَمٌّ للبيْن يُرَدِّدُهُ

فبكاه النجمُ وَرَقَّ لَه ... مما يَرْعَاهُ ويَرْصُدُه

وغدًا يقضي أو بَعْدَ غدٍ ... هل من نَظَرٍ يَتَزَوَّدُهُ

يهوى المشتاقُ لقاءَكمُ ... وصروفُ الدهر تُقَيِّدُهُ

بقي بشرٌ خمسين سنةً يشتهي شهوةً، فما صفا له درهمها، وبضائعُ أعمارِكم كلها منفقَةٌ في الشهوات من الشبهات.. يا مَن فاتوه وتخلَّف، بل تراهم من دمع الأسف»[١].

□ وقال: «سافر القومُ على رواحل الصِّدق، فقطعوا أرض الصبر، حتى وقعوا برياضِ الأنس، فعبَقَت قلوبهم بنَشْر القُرْب، وتعطَّرَت بنسيم الوصل، حمائمُ أرواحهم مسجونة في أقفاص أشباحهم، تُصَوِّتُ لشجو شوقِها، وتقلق لضيق حبسها.

البكاء وأبُهم، والدمع شرابهم، والجوع طعامهم، والصمت كلامهم أعندك من حديثهم خبر؟ ألك في طريقهم أثر..

رقدتَ ولم تـرثَ للساهِر ... وليـلُ المحـبِّ بـلا آخِـرِ

ولم تدر بعد ذهاب الرُّقـادِ ... مـا فعـل الـدمعُ بالنـاظِرِ

نازلهم الخوفُ فصاروا والهين، وفاجأهم الفكرُ فعادوا متحيِّرين، وجَنَّ عليهم الليل فرآهم ساهرين، وهبَّتْ رياحُ الأسحار فمالوا مستغفرين، فإذا رجعوا وقت الفجر بالأجر نادى منادي الهجر يا خيبة النائمين.

جُلِيت أوصافُ الحبيب في حِلية الكمالِ، فقاموا على أقدام الشوق، يسيحون في خلواتِ الوجد، فلو رأيتهم لقلت: مجانين، هيهات، مَن لا يعرف مناسك الحج نَسب المُحرِمين إلى الخَبَل، الناس يضحكون وهم يبكون، ويفرحون وهم يحزنون، وينامون وهم يسهرون.

لما تمكَّنت المعرفة من قلوبهم، أثَّرَت شدة الخوف، فارتفع ضجيج الوجد.

---

(١) «المدهش» (ص٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥).

أتاهم مِن الله وعيدٌ وَقَذَهم، فباتوا على حُرَق، وأكَلُوا على تنغيص، فنومهم نوم الغَرْقَى وأكْلُهم أكْلُ المرضى، عجزت أبدانهم عمَّا حملت قلوبُهم ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣][1].

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «اجمعوا لي عزائمَ قويةً تُشابه زُبَرَ الحديد.. شيدوا بنيان العزائم بهجر المألوف؛ ليستحجر البناء، فنستغني أن نُفرغ عليه قطرا، هكذا بناء الأولياء، فجاء الأعداء ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧].

ليس عزْمًا ما مرض المرء فيه ... ليس همًّا ما عاق عنه الظلامُ

الجدّ الجدّ، فما تحتمل الطريق الفتور»[2].

□ «أيها المقصِّرُ عن طلب الزاد، كيف تدرك المعالي بغير اجتهاد؟ أين أهل السهر؟ من أهل الرُّقاد؟ أين الرَّاغبون في الهوى؟ من الزُّهَّاد؟ رحل المتيقِّظون، مستظهرين بكثرة الزاد، كل جواد لهم يعرف الجواد، فساروا فزاروا والكسلان عاد».

□ وقال: «يا هذا، كيف تُطيقُ السهر مع الشِّبع؟ كيف تُزاحم أهل العزائم بمناكب الكسل..

دع الهوَى لأُناس يُعرَفون به ... قد مارسوا الحبَّ حتى لانَ أصعَبُهُ

بلوتَ نفسك فيما لست تخبُرُه ... والشيء صعبٌ على من لا يُجرِّبه

فاقن اصطبارًا وإن لم تستطع جَلَدًا ... فرُبَّ مُدْرك أمر عزَّ مطلَبُهُ

□ يا هذا، قد سمعتَ أخبار المتقين، فسِرْ في سِرْبهم، وقد عَرَفت

---

(١) «المدهش» (ص٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠).

(٢) المصدر السابق (ص٤٤٦).

جدّهم، فتناول من شِربهم:

وسائِلٌ عنهمُ ماذا يقدِّمهم ... فقلتُ فضلٌ به عن غيرهم بانوا
صانوا النفوسَ عن الفحشاء ... منهن في سبُل العلياء ما صانوا
المنعمون وما مَنُّوا على أحدٍ ... يومًا بنُعْمى ولوْ مَنُّوا لما مانوا
قوم يعزون إنْ كانتْ مغالبةً ... حتى إذا قدرت أيديهمُ هانوا

□ «إذا جاء الليلُ تغالَب النوم والسهر، والخوف والشوق، في مقدم عسكر اليقظة، والكسل والتواني في كتيبة الغفلة، فإذا حمل الصبر، حمل على القيام، فانهزمت جنود الفتور، فما يطلع الفجر إلَّا وقد قسمت السهمان، سفر الليل لا يطيقه إلَّا مُضَمَّر المجاعة، النجائب في الأول، وحاملات الزاد في الأخير..

سَقُوْا بمياه أعينهم ... هناك الضال والرَّندا
بأنفاسِ كبرقٍ في ... أنينٍ يشبه الرَّعْدَا

إنْ ناموا توسَّدوا أذرُعَ الهمم، وإن قاموا فعلى أقدام القلق، لما امتلأت أسماعهم بمعاتبة «كذب من ادَّعى محبتي، فإذا جنَّه الليل نام عني» حلفت أجفانهم على جفاء النوم.

إِن كان رضاكم في سهري ... فسلامُ الله على وَسَني

ما زالت مطايا السهر تَذريع بيد الدُّجى، وعيونُ آمالها لا ترى إلَّا المنزل، وحادي العزم يقول في إنشاده: «يا رجال الليل جِدُّوا»، إلى أن نمَّ النسيمُ بالفجر، فقام الصارخُ ينعي الظلام، فلما هَمَّ الليل بالرحيل، تشبثوا بذيل السحر.

قال عليٌّ بن بكَّار: «منذ أربعين سنة ما أحزنني إلَّا طلوع الفجر».

لو قمتَ في السَّحَر، لرأيتَ طريق العُبَّاد قد غُصَّ بالزحام، **لو وردت** ماء مدين وجدت عليه أمةً مَن..

بانوا وخُلِّفْتُ أبكي في ديارِهِمُ قل للديار سقاك الرائح الغادي

وقل لأظعانهم حُيِّيت مِن ظَعْنٍ وقلْ لواديهمُ حُيِّيت مِن واد

يا من يستهول أحوال القوم، تنقَّل في المراقي، تعل»[١].

□ قال –أحد العبَّاد–: «ما زلتُ أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي، حتى سُقْتها وهي تضحك».

□ وقال: «كنتُ اثنتى عشرةَ سنةً حدَّاد نفسي، وخمسين سنةً مرآة قلبي، ولقد أحببتُ اللهَ حتى أبغضت نفسي».

✍ **أخي**: «لا تكون الهمَّة الوافية إلَّا لنفسٍ نفيسة.. لو صابرتَ مشقة الطريق، لانتهى السفر، فتوطَّنت مستريحًا في جنات عدن».

يا ابن آدم عندك ما تعاوبه الهمم فلا تَبِعْها رخيصة:

يا هذا عندك بضائعُ نفيسة: دموع، ودماء، وأنفاس، وحركات، وكلمات، ونظرات، فلا تبذُلْها فيما لا قدْرَ له، أيصلحُ أن تبكي لفقد ما لا يبقى؟ أو تتنفسَ أسفًا على ما يفنى، أو تبذلَ مُهجةً لصورة عن قليل تُمحى، أو تتكلمَ في حصول ما يَشين ويتوى.

ويحك، دمعةٌ فيك تطفئُ غضب المولى، وقطرةٌ من دمٍ في الشهادة تمحو زللك، ونَفَس أسفٍ ينسف ما قد سلف، وخطواتٌ في رضانا تغسل

---

(١) «المدهش» (ص٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١).

الخطيئات، وتسبيحةٌ تغرس لك أشجارَ الخُلْد، ونظرةٌ بعبرة تثمر الزهد في الفاني»[(١)].

ثمن المعالي جدُّ الطَّلَب:

أخي: طريقُ الوصول صعبة، وفي رِجْلِك ضعف، وَيْحك، دُمْ على السلوك تَصِلْ، أول النخلة السحوق فَسيلة، بداية الآدمي الشريف مَضغة، ثمن المعالي جدُّ الطَّلَب، والفتور داء مُزمِن، بلد الرياضة سحيق ﴿لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧] فأين أنت.. وأين طلبك لحوائج القلب، سحابةُ الصيف أثبتُ مِن قولك والخط على الماء أبقى من عهدك..

مــن الــسَّلوة في عينـــ ـــيك آيـــاتٌ وآثـــارُ
أراهـــا منـــك بالـــذِّهنِ وفي الألبـــاب إبـــصارُ
إذا مـــا بـــرُد القلـــب فـــما تُـــسخِنُه النـــارُ

يا هذا إذا حضر قلبك وَعلَت هِمَّتُك فنسيم الريح يذكِّرك، وإنْ غاب فمائة ألف نبيٍّ لا يُوَصِّلون التذكرة إليك.. تالله لقد ألمعنا المعنى، وما ألزمنا الزَّمْنَى..

ولي ألف بابٍ قـد عرفـتُ سبيلَه ولكـنْ بـلا قلـبٍ إلى أيـن أذهـبُ

كيف يقعد مشتاق يحرِّكه الشوق والأمل:

□ قال بعض السَّلف: «لقيتُ غلامًا في طريق مكة، فقلتُ له: أما تستوحش؟ فقال: إنَّ الإنس بالله قطع عنِّي كلَّ وحشة، قلتُ: فأين

(١) «المدهش» (ص٤٩٤- ٤٩٥).

ألقاك؟ قال: أمَّا في الدنيا فلا تُحدِّث نفسك بلقائي، وأما في الآخرة فإنها مَجمعُ المتقين، قلت: فأين أطلبُك في الآخرة؟ قال: اطلبني في جملة الناظرين إلى الله تعالى. قلتُ: وكيف علمتَ؟ قال: بغضِّ طرفي عن كل مُحَرَّمٍ، واجتنابي فيه كلَّ مُنكر ومأثم، وقد سألتُه أن يجعل جنَّتي النظرَ إليه، ثم صاح وأقبل يسعَى حتى غاب عن بصري..

وما تلوَّم جسمي عن لقائكمُ ... إلَّا وقلبي إليكم شيِّقٌ عَجِلُ

وكيف يقعد مشتاقٌ يُحرِّكه ... إليكم الحافزان الشوقُ والأمَلُ

فإن نهضتُ فما لي غيركم وَطَرٌ ... وإن قعدت فما لي غيركم شغل

وكم تعرّض لي الأقوام بَعْدَكُمُ ... يستأذنون على قلبي فما وَصلَوا [1]

أتُرَاك تحلو لك عباراتي؟ أو تفهم إشاراتي:

عبارةُ النسيم لا يفهمها إلَّا الأحباب، وحديثُ البروق إلَّا للمشتاق، العباراتُ حظ النفوس، والإشاراتُ قوت القلوب.. نزل بعضُ أرباب المعرفة إلى الشَّط فصاح: «يا ملَّاح احملني، فقال: إلى أين؟ قال:إلى دار المَلِك، فقال: معي رُكَّابٌ إلى «القطيعة»، فصاح العابد الأوَّاه: لا بالله، لا بالله، أنا منذ سبعين سنة أَفِرُّ منها».

رحم الله أقوامًا كانوا إذا ابتُلوا صبروا، ثم صاروا إذا ابتُلوا شكروا، ثم رأوا في البَلى المبتِلي فسكروا.. أين الذين أصفهم؟! مَرُّوا وعبروا.

□ قال عابد: «رأيت جاريةً حبشيةً: فقلتُ: مِن أين؟ قالت: مِن عند الحبيب؟ قلتُ: وإلى أين؟ قالت: إلى الحبيب؟ قلت: ما تريد من الحبيب:

(١) المصدر السابق (ص٥٢٢).

قالت: الحبيب. فيا أطفال الهوى أين أنتم والأحباب. أين أنتم والرجال».

من طلب المعالي سهر الليالي:

مَن طلب المعالي سهر الليالي، لولا صبرُ المضمَّر على قلَّة العلَف، ما قيل سبَّاق..

هـوَّن في الليـل عليهـا الغـررا أنَّ العُـلَى مقيَّـدات بالـسُّرَى

قـد تركـتْ مطعمهـا لـشوقها تقول كلُّ الـصيدِ في جَـوف الفِـرَا

مَن لم تبك الدنيا عليه، لم تضحكْ الآخرة إليه.

سينقشع غيمُ التعب عن فجر الأجر.. رحم اللهُ أعظُمًا طالما نصبت وانتصبت، جنَّ عليها الليل، فلما تمكَّن وثبت، إنْ ذكرت عدله رهبت وهربت، وإنْ تصوَّرت فضله فرحت وطربَتْ، هبَّت على قلوبهم عقيم الحذر فاقشعرَّت وندبت، فبكت عليها سحائبُ الرجاء فأهتزَّت وَرَبَت، أماكنُ تعبُّدهم باكية، ومواطن خَلَواتهم لفقدهم شاكية، زال التعب وبقى الأجر، وذهب ليل النَّصَب وطلع الفجر، تحت **طوبى مستراح العابدين**، إنما يطيب مكان الاستراحة بإجراء حديث التعب، **وإنما يلذ الظل البارد** لمن تأذَّى بحرِّ الهجير.

إخواني: مَثِّلو الاستراحة تحت شجرة طوبى، **يهون عليكم السَّفَر**، ادأبوا في السَّيْر فقد لاح العَلَم [١].

□ «أين أهلُ العزائم؟! رحلوا وماتوا، أين أهل اليقظة؟! ذهبوا وفاتوا، قِفْ على قبورهم تجد ريحَ العزم، تنفَّسْ عندها تحب روح الحزْم،

(١) «المدهش» (ص٥٤٨).

أقبلوا بالقلوب على مُقَلِّبِها، وأقاموا النفوسَ لدى مؤدِّبها، ومدُّوا الباعَ من الباع التسليم إلى صاحبها، وأحضروا الأخرى فنظروا إلى غايتها، وسهروا الليالي كأنهم قد وُكِّلوا برعي كواكبها، ونادَوا نفوسهم صبرًا على نار البلاء لمن كواكَ بها، ومقَتوا الدنيا فما مال الملأ إلى ملاعبها، واشتاقوا إلى الحبيب فاستطالوا مدة المقام بها..

لا أُتْبِعِ القلب إلى غيركم عيني لكم عينٌ على قلبي [(١)]

ومن لآلئ كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صاحب الهمَّة العَليَّة أمانيه حائمةٌ حول العلم والإيمان والعمل الذي يقرِّبُه إلى الله ويدنيه من جواره.. فأمَانيُّ هذا إيمان ونور وحكمة، وأمانيُّ أولئك»[(٢)].

□ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلو الهمة أن لا يقفُ دون الله، ولا تتعَوَّض عنه بشيءٍ سواه، ولا ترضى بغيره بدلًا منه، ولا تبيع حظَّها من الله وقربه، والأنس به، والفرح والسرور والابتهاج به، بشيءٍ من الحظوظ الخسيسة الفانية، فالهمةُ العالية على الهمم كالطائر العالي على الطيور، لا يرضى بمساقطهم، ولا تصلُ إليه الآفات التي تصل إليهم، وكلما علت بَعُدَت عن وصول الآفات إليها، وكلما نزلت قصدتها الآفاتُ من كل مكان، فإن الآفاتِ قواطعٌ وجواذب، وهي لا تعلو إلى المكان العالي فتجتذب منه، وإنما تَجتذِب من المكان السَّافِل، فعُلُوُّ همةِ المرءِ عنوانُ فلاحِه، وسُفُول هِمَّتِه

---

(١) «التبصرة» (٢٥/ ٢٥٣).

(٢) أي المفاليس من أبناء الدنيا.

عنوان حرمانه»(١).

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ: «لذَّةُ كل أحدٍ على حسب قدره وهمّته وشرف نفسه، فأشرف الناس نفسًا وأعلاهم همَّةً وأرفعهم قدرًا، مَن لذَّتهم في معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه، والتودُّد إليه بما يحبه ويرضاه، فلذَّته في إقباله عليه وعكوف همته عليه ودون ذلك مراتبٌ لا يُحصيها إلَّا اللهُ، حتى تنتهي إلى مَن لَذَّتُهُ في أخسِّ الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيءٍ من الكلام والفِعال والأشغال، فلوْ عَرَض عليه ما يلتذُّ به الأول لم تسمح نفسهُ بقبوله ولا التفتت إليه، وربما تألَّمت من ذلك، كما أنَّ الأول إذا عُرِض عليه ما يلتذُّ به هذا لم تسمح نفسُه به، ولم تلتفت إليه، ونَفَرَتْ نفسُه منه»(٢).

□ ويقول: «ولله الهمم ما أعجب شأنها وأشدَّ تفاوتها، فهمَّةٌ متعلِّقة بالعرش، وهمَّةٌ حائمة حول الأنتان والحش(٣)»(٤).

مستلزمات المطالب العالية:

□ قال رَحِمَهُ اللهُ: «المطلبُ الأعلى موقوفٌ حصوله على همَّةٍ عالية ونيَّةٍ صحيحة، فمن فقدهما تعذَّر عليه الوصول إليه.

فإن الهمَّةَ إذا كانت عاليةً تعلَّقت به وحده دونَ غيرِهِ، وإذا كانت النيَّةُ

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم الجوزية (١/ ٤٥٧) -طبع أنصار السنة المحمدية..

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٧١ - ١٧٢).

(٣) بيت الخلاء.

(٤) «مدارج السالكين» (٣/ ١٤٧).

صحيحةً سلك العبدُ الطريق الموصلة إليه، فالنيّة تُفرِد له الطَريق، والهمّةُ تُفرِد له المطلوبَ، فإذا توحَّد مطلوبه والطّريقُ الموصولةُ إليه كان الوصول غايته.

وإذا كانت همّتُه سافلةً تعلّقت بالسُّفليات، ولم تتعلّق بالمطلب الأعلى، وإذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقُهُ غيرَ موصلةٍ إليه، فمدارُ الشأن على همّة العبد ونيَّتِهِ، وهما مطلوبُهُ وطريقُهُ، ولا يتمُّ له إلّا بترك ثلاثة أشياء:

الأول: العوائدُ والرُّسوم والأوضاعُ التي أحدثها الناس.

الثاني: هجْر العوائق التي تعوقه عن إِفرادِ مطلوبه وطريقه وقطعِها.

الثالث: قطع علائق القلبِ التي تحولُ بينه وبين تجريد التعلّق بالمطلوب.

والفرق بينهما أن العوائق هي الحوادث الخارجية، والعلائق هي التعلّقات القلبية بالمباحات ونحوها.. واصل ذلك: ترك الفُضول التي تشغل عن المقصود من الطعام والشراب والمنام والخُلطة، فيأخذ من ذلك ما يعينه على طلبه، يرفض منه ما يقطعه عنه أو يُضعف طلبه»[(١)].

مَن جعل الهمّ همًّا واحدًا:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا أصبح العبد وأمسى -وليس همُّه إلّا الله وحده- تحمّل الله سبحانه حوائجه كلَّها، وحمل عنه كل ما أَهمَّه، وفرَّغ قلبَه لمحبته، ولسانَه لذكره، وجوارحَه لطاعته. وإن أصبح وأمسى -والدنيا

---

(١) «الفوائد».

همَّه- حمَّلَه اللهُ همومَها وغمومَها وأنكادَها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلْق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحَه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدْحَ الوحش في خدمة غيره، كالكِير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره!

فكُلُّ من أعرض عن عبوديَّة الله وطاعته ومحبته يُلِيَ بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ (٣٦) ﴾ [الزخرف][١].

مدارج السالكين:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «طالبُ النفوذ إلى الله والدار الآخرة -بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة؛ بحيث يكون رأسًا في ذلك مُقتدىً به فيه- يحتاج أن يكون شجاعًا مقدامًا حاكِمًا على وَهْمِه، غيرَ مقهورٍ تحت سلطان تخيُّله، زاهدًا في كلِّ ما سوى مطلوبه، عاشقًا لما توجَّه إليه، عارِفًا بطريق الوصولِ إليه والطرقِ القواطع عنه، مِقدامَ الهمَّة، ثابت الجأش، لا تثنيه عن مطلوبه لومُ لائم ولا عَذْلُ عاذلٍ، كثيرَ السكوتِ دائمَ الفِكْر، غيرَ مائِلٍ مع لذّة المدح ولا ألِمِ الذَّمِّ، قائمًا بما يحتاج إليه من أسباب معونتِهِ، لاتستفزُّهُ المعارضاتُ، شعارُه الصبرُ، وراحتُه التعب، محبًّا لمكارم الأخلاقِ، حافظًا لوقته، لا يخالطُ الناسَ إلَّا على حذر -كالطائر الذي يلتقَط الحَبَّ بينهم- قائمًا على نفسه بالرَّغْبة والرَّهْبة، طامِعًا في نتائج الاختصاص على بني جنسِهِ، غير مُرْسِلٍ شيئًا من حواسِّه عبثًا، ولا مُسرِّحًا خواطِرَه في مراتب الكون.

---

(١) «الفوائد».

وملاكُ ذلك: هجرُ العوائدِ وقطعُ العلائِقِ الحائلةِ بينك وبين المطلوب»[(١)].

عالي الهمة وقطع عوائق الطريق:

«إذا عزمَ العبدُ على السَّفَر إلى الله تعالى وإرادته؛ عَرَضت له الخوادعُ والقواطعُ، فينخدع أوَّلًا بالشهوات والرِّياسات والملاذِّ والمناكِح والملابس، فإنْ وقف معها انقطع.

وإنْ رفضَها ولم يقف معها وصَدَق في طلبه ابتُلي بوطء عقبه [(٢)]، وتقبيل يده والتوسعة له في المجلسِ، والإشارة إليه بالدُّعاء ورجاءِ بركتِهِ،ونحو ذلك!! فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظَّه منه. وإنْ قطعَه ولم يقف معه ابتُلِي بالكرامات والكشوفات فإنْ وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظَّه. وإن لم يقف معها ابتُلِي بالتجريد والتخليِّ ولذّة الجمعية [(٣)]وعزّة الوحدة والفراغِ من الدُّنيا. فإن وقف معها مع ذلك انقطع به عن المقصودِ.

وإن لم يقف معه وسارَ ناظِرًا إلى مراد الله منه وما يحبه منه بحيث يكونُ عبدَه الموقوفَ على محابِّه ومراضيه أين كانت وكيف كانت، تعبَ بها أو استراح، تنعَّم أو تألمَّ؟! أخرجته إلى الناس أوْ عَزَلَتْه عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختارُهُ له وليُّه وسيِّدُه، واقفٌ مع أمره يُنَفِّذْهُ بحسب الإمكانِ، ونفسُه عندَه أهونُ عليه أن يقدِّم راحتَها ولذَّتها على مرضاة سيِّده وأمرِه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أي بكثرة الأتباع والمريدين.

(٣) أي: اجتماع قلبه علىٰ ربه سبحانه.

فهذا هو العبد الذي قد وصلَ ونفَذَ ولم يقطعه عن سيِّده شيءٌ ألبتة»[١].

أصلُ علو الهمة شرف النفس وعدم رضاها بالدُّون:

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصلُ الخيْر كلِّه بتوفيق الله ومشيئته: شرفُ النفْس ونُبْلُها وكِبَرُها، وأصْلُ الشَّرِ خِسَّتُها ودناءَتُها وصِغرُها، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس]، أي: أفلحَ مَن كبَّرَها وكثَّرَها ونمَّاها بطاعة الله، وخابَ مَن صَغَّرَها وحقَّرَها بمعاصي الله، فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياءِ إلَّا بأعلاها وأفضلِها وأحمدِها عاقبة.

والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذُّبابُ على الأقذارِ فالنفس الشريفةِ العليَّةُ لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسِّرقة والخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأَجَلُّ، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضدِّ من ذلك، فكُلُّ نفْس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٤]، أي: على ما يشاكله ويناسِبُه، فهو يعمل على طريقته التي تُناسبُ أخلاقَه وطبيعتَه، وكل إنسانٍ يجري على طريقته ومذهبه وعاداتِه التي أَلِفَها وجُبِلَ عليها، فالفاجر يعمل على ما يشبه طريقته من مقابلة النِّعَم بالمعاصي والإعراض عن المُنعم، والمؤمن يعمل بما يشاكلُهُ من شكر المنِعِم ومحبته، والثناءِ عليه والتودُّد إليه، والحياء منه، والمراقبة له وتعظيمه وإجلالَه»[٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

لِقاح الخير:

«العزيمة لقاحُ البصيرة، فإذا اجتمعا نالَ صاحبُهما خيرَ الدنيا والآخرة، وبلغتْ به همَّتُهُ مِنَ العلياء كلَّ مَكانٍ. فتخلُّفِ الكمالاتِ إمَّا من عدم البصيرة، وإمَّا من عدم العزيمة.

ولقاحُ الهِمَّةِ العاليةِ النيَّة الصحيحة، فإذا اجتمعا بلغ العبدُ غايةَ المُرادِ»(١).

أعلى الهمم:

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعْلَى الهِمَم هِمَّة من استعدَّ صاحبُها للقاء الحبيب، وقدَّم التقادِمَ بين يدي الملتقَى فاستبشر بالرِّضا عند القدوم ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

□ والجنة رَضى منك بأداءِ الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المعاصي، والمحبة لا تقنع منك إلَّا ببذل الروح»(٢).

الهمَّة العليّة في عكوفِ القلب على ربِّ البَرِيّة:

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإنابة هي عكوفُ القلب على الله عَزَّ وَجَلَّ؛ كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه.

وحقيقة ذلك: عكوفُ القلب على محبَّته وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله، ومن لم يعكف قلبُه على الله وحده عَكَف على التماثيل المتنوِّعة؛ كما قال إمام

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢﴾ [الأنبياء]، فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوفِ، فكان حظُّ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظُّه العكوفَ على الربِّ الجليل.

والتماثيل جمع تمثالٍ، وهي الصُّورُ المُمَثَّلَة، فتعلّقُ القلبِ بغير الله واشتغالُه به والرُّكُونُ إليه عكوفٌ منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شركُ عُبَّاد الأصنامِ بالعكوفِ بقلوبهم وهِمَمِهم وإراداتهم على تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيلُ قد مَلَكَتْه واستعبدَتْه بحيث يكون عاكِفًا عليها، فهو نظير عكوفِ الأصنامِ عليها، ولهذا سمّاه النبي ﷺ عبدًا لها، ودعا عليه التَّعْس والنُّكْس، فقال: «تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ، تَعِسَ عبدُ الدِّرهم، تَعِسَ وانتكس، وإذا شِيكَ فلا انتقش»[(١)].

الناس في هذه الدَّار على جَنَاح سفرٍ كلُّهم، وكلُّ مسافرٍ فهو ظاعنٌ إلى مقصده، ونازلٌ على مَن يُسَرُّ بالنزولِ عليه.

وطالب الله والدار الآخرة إنّما هو ظاعن إلى الله في حال سفره، ونازل عليه عند القدوم عليه، فهذه همته في سفره وفي انقضائه ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر]، وقالت امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتًا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، فطلبت كون البيتِ عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة، فإن الجار قبل الدار»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٧) عن أبي هريرة.

(٢) «فوائد الفوائد» لعلي حسن عبد الحميد.

أعلى الهمم:

أعلى الهمم: الجَمْع في الألوهية، وهو جمعُ القلب والهم والسِّرِّ على محبوبه ومراضيه، ومراده منه، فهو عكوف القلب بكُلِّيته على الله ﷻ لا يتلفت عنه يَمْنَةً ولا يَسْرة. فإذا ذاقت الهمَّة طعم هذا الجمع اتصل اشتياقُ صاحبها، وتأجَّجت نيرانُ المحبة والطلب في قلبه، ويجدُ صبره من محبوبه من أعظم كبائره كما قيل:

والصبر يحمدُ في المواطن كلِّها ... إلَّا عليك فإنَّه لا يُحمد

وفي الأثر الإلهي «إني لا أنظرُ إلى كلام الحكيم، وإنما أنظر إلى همَّته».

فلله همَّةُ نفْس قطعتْ جميع الأكوان، وسارت فما ألقت عصى السير إلَّا بيْن يدي الرحمن تبارك وتعالى، فسَجدت بين يديْه سجدةَ الشكر على الوصول إليه، فلم تزل ساجدة حتى قيل لها: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى (٢٩) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى (٣٠) ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

فسبحان مَن فاوت بين الخلق في هممهم، حتى ترى بيْن الهمَّتْن أبعدُ مما بيْن المشرقيْن، بل أبعد مما بين أسفل سافلين وأعلى علِّيين، وتلك مواهب العزيز الحكيم، ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم [1].

استقامة السير إلى الله وعلو الهمة:

□ قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلَّا بحبسيْن: حَبْسِ قلبه في طلبه ومطلوبِهِ، وحبسِه عن

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٩٨/ ٩٩).

الالتفاتِ إلى غيره، وحبسِ لسانهِ عمَّا لا يفيدُ، وحبسِه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبسِ جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسِها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبسَ حتى يلقى ربه، فيخلِّصه من السجن إلى أوسع فضاءٍ وأطيبه.

ومتى لم يصبرْ على هذيْن الحبْسيْن وفرَّ منهما إلى فضاء الشهوات؛ أعقبَهُ ذلك الحبسَ الفظيعَ عند خروجه من الدنيا، فكلُّ خارجٍ من الدنيا؛ إمَّامتخلِّصٌ من الحبس أو ذاهبٌ إلى الحبْس»[١].

من مراتب الحياة: حياةُ الإرادة والهمة:

□ قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ في مرتبة «الحياة» في كتابه القيم «مدارج السالكين»: «المرتبة السادسة: حياة الإرادة والهمَّة. وضعف الإرادة والطَّلَب من ضَعْف حياة القلب. وكُلَّما كان القلب أتم حياة، كانت همته أعلى، وإرادته ومحبته أقوى؛ فإن الإرادة والمحبة تتبعُ الشعورَ بالمراد المحبوب. وسلامةُ القلب من الآفة التي تحول بينه وبين طلبه وإرادته. فضعفُ الطلب، وفتور الهمَّة: إمَّا من نقصان الشعور والإحساس، وإمَّا من وجود الآفة المضعفة للحياة، فقوَّة الشعور، وقوة الإرادة: دليل على قوَّة الحياة. وضعفهما دليلٌ على ضعفها.

وكما أن عُلُوَّ الهمّة، وصدقَ الإرادة، والطلب من كمال الحياة، فهو سبب إلى حصول أكمل الحياة وأطيبها، فإن الحياة الطيِّبة إنما تُنَال بالهمَّة العالية، والمحبة الصادقة، والإرادة الخالصة. فعلى قدر ذلك تكونُ الحياة الطيِّبة. وأَخَسُّ الناس حياة أخسُّهم همَّة، وأضعفهم محبَّةً وطلبًا، وحياةُ

---

(١) «فوائد الفوائد» (ص٤٢٣ - ٤٢٤).

البهائم خيرٌ من حياته، كما قيل:

نهارك، يا مغرورُ سَهْوٌ وغفلةٌ ... وليلك نومٌ والرَّدى لك لازمُ

وتكدح فيما سوف تنكِرُ غَبَّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

تُسَرُّ بما يَفْنى، وتفرحُ بالمُنَى ... كما غُرَّ باللذَّات -في النوم- حالمُ

والمقصود: أن حياةَ القلب بالعلم والإرادة والهمَّة، والناس إذا شاهدوا ذلك من الرجل، قالوا: هي حيُّ القلب، وحياة القلب بدوام الذكر، وترك الذُّنوب كما قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رأيتُ الذُّنوبَ تميتُ القلوبَ ... وقد يورثُ الذُّلَّ إدمانُها

وترْك الذُّنوب حياةُ القلوبِ ... وخيْرٌ لنفسك عِصيانُها

وهل أفسدَ الدين إلَّا الملو ... ك وأحبارُ سُوءٍ ورُهابها؟

وباعُوا النُّفوسَ ولمْ يربحوا ... ولم يَغْلُ في البيع أثمانُها

فقد رتعَ القوم في جيفةٍ ... يبين لذي اللُّبِّ خسرانها

□ وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «مَن واظب على «يا حيُّ يا قيوم لا إله إلَّا أنت» كل يوم -بين سُنَّة الفجر وصلاة الفجر- أربعين مرّة أحيى الله بها قلبه».

وكما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطَّعام الشراب، فحياةُ القلب بدوام الذكر والإنابة إلى الله، وتركِ الذنوب، والغفلةُ الجاثمة على القلب، والتعلُّق بالرذائل والشهوات المنقطعة عن قريب يُضعف هذه الحياة. ولا يزال الضعف يتوالى عليه حتى يموت، وعلامة موته: أنه لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا. كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أتدرُون مَن

ميِّت القلب، الذي قيل فيه:

لـيسَ مـن مـات فاسـتراحَ بميِّـتٍ ... إنـما المَيْـتُ ميِّـتُ الأحيـاءِ؟

قالوا: ومن هو؟ قال: الذي لا يعرف معروفًا ولا يُنكِر منكرًا».

والرَّجُل: هو الذي يخاف موتَ قلبه، لا موتَ بدنه، إذ أكثر هؤلاء الخلْق يخافون موتَ أبدانهم، ولا يُبالون بموت قلوبهم، ولا يعرفون مِن الحياة إلَّا الحياة الطبيعية، وذلك من موت القلب والروح.

وقد قيل: «إن الموت موتان: موتٌ إرادي، وموتٌ طبيعي. فمَن أمات نفسه موْتًا إراديًا كان موته الطبيعي حياة له»، ومعنى هذا: أن الموت الإرادي: هو قمعُ الشهوات المُرْدِية، وإخمادُ نيرانها المحرقة، وتسكينُ هوائجها المتلفة، فحينئذٍ يتفرَّغُ القلب والروح للتفكُّر فيما فيه كمالُ العبد، ومعرفته، والاشتغال به. ويرى حينئذٍ أن إيثار الظلِّ الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم أخسرُ الخسران.

فأمَّا إذا كانت الشهوات وافدة، واللذَّات مُؤثَرة، والعوائد غالبة، والطبيعة حاكمة، فالقلب حينئذٍ: إمَّا أن يكون أسيرًا ذليلًا، أو مهزومًا مُخرَجًا عن وطنه ومستقرِّه الذي لا قرار له إلَّا فيه، أوْ قتيلًا ميِّتًا وما لجُرْح بميِّت إيلامُ، وأحسن أحواله: أن يكون في حربٍ، يُدال له فيها مَرَّة، ويُدال عليه مرَّة، فإذا مات العبدُ موتَه الطبيعي: كانت بعده حياة روحه بتلك العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والأحوال الفاضلة التي حصَلت له بإماتة نفسه، فتكون حياته هاهنا على حسب موته الإرادي في هذه الدار.

وهذا موضِعٌ لا يفهمه إلَّا ألبَّاءُ الناس وعقلاؤُهم، ولا يعمل بمقتضاه

إلَّا أهل الهمم العَلِيّة والنفوس الزكِيّة الأَبِيَّة»[(١)] .

لا عيْش إلا عيشُ المحبِّين علاة الهمَّة :

□ قال ابن قيم الجوزية: «لا عيشَ إلَّا عيش المحبين، الذين قرّت أعينهم بحبيبهم، وسَكَنَتْ نفوسِهم إليه، واطمأَنَّت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه، وتنعَّمُوا بحبِّه، ففي القلب فاقه لا يسدُّها إلَّا محبة الله، والإقبال عليه، والإنابة إليه، ولا يَلُمُّ شَعْثَه بغير ذلك ألبتة. ومَن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات. فإنه إن كان ذا هِمَّة عالية تقطَّعت نفسه على الدنيا حسرات، فإن هِمَّته لا ترضى فيها بالدُّون وإن كان مهينًا خسيسًا فعيشه كعيش أَخسِّ الحيوانات، فلا تقرُّ العيون إلَّا بمحبة الحبيب الأوَّل..

نقِّل فؤادَكَ حيثُ شئت من الهوى ... ما الحُبُّ إلَّا للحبيب الأوَّلِ

كمْ منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأوَّل منزِلِ[(٢)]

عُلاة الهمم السبَّاقون أولئك ذخائر الله حيثُ كانوا :

□ قال ابن القيم عنهم: «أنهم -لعلوِّ هممهم- سبقوا الناس في السَّيْر، فلم يقفُوا معهم، فهم المفرِدون السابقون، فلِسبقهم لم يُوقف لهم على أثر في الطريق. ولم يعلم المتأخِّر عنهم أين سلكوا؟ والمشمِّر بعدهم قد يَرَى آثار نيرانهم على بُعْدٍ عظيم، كما يرى الكوكب، ويستخبر ممن رآهم: أين رآهم؟ فحاله كما قيل:

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٦٤- ٢٦٥).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٧٤).

أسائِل عنكم كلَّ غادٍ ورائحِ ... وأومي إلى أوطانِكم وأُسلِّمُ

لم يتقيدُّوا بعمل واحد، يجري عليهم اسمه فيعُرفون به دون غيره من الأعمال، فإنَّ هذه آفة في العبودِيّة، وهي عبودَيَّة مقيَّدة، وأما العبوديّة المُطلقة، فلا يُعرَف صاحبها باسم معيَّن من معاني أسمائها، فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها، فَلَهُ مع كل أهل عبوديةٍ نصيبٌ يضرب معهم بسهم، فلا يتقيَّد برسمٍ ولا إشارة، ولا اسم ولا زي، ولا طريق وضعي اصطلاحي. بل إن سُئِل عن شيخه؟ قال: الرسول. وعن طريقه؟ قال: الاتِّباع. وعن خِرْقته؟ قال: لباس التقوى. وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السُّنَّة. وعن مقصوده ومطلبه؟ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] وعن رباطه وعن خانكاه؟ قال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]، وعن نسبه؟ قال:

أبي الإسلام لا أبَ لي سواهُ ... إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم

وعن مأكله ومشربه؟ «مالك ولها؟ معها حِذاؤها وسقاؤها تَرِد الماء وترعى الشجر حتى تلقى ربها [(١)]».

واحَسْرَتاهُ تقضَّى العمرُ، وانصرمت ... ساعاتُه بين ذُلِّ العجز والكسلِ

والقومُ قد أخذوا درب النجاة وقدْ ... ساروا إلى المطلب الأعلى على مَهَلِ

□ «أولئك ذخائر الله حيث كانوا» ذخائر الملك: ما يخبأ عنده، ويَذْخره لمهَماته، ولا يبذله لكل أحد، وكذلك ذخيرة الرجل: ما يَذْخره

(١) يشير إلى جواب النبي ﷺ لمن سأله عن لقطة الإبل؟.

لحوائجه ومهماته.

وهؤلاء لما كانوا مستورِين عن الناس بأسبابهم، غيرَ مشارٍ إليهم ولا متميِّزين برسم دون الناس، ولا منتسبين إلى اسم طريق، أوْ مذهب، أو شيخ أو زِيٍّ: كانوا بمنزلة الذخائر المخبوءة، وهؤلاء أبعدُ الخلق عن الآفات، فإن الآفات كلَّها تحت الرسوم والتقيُّد بها، ولزوم الطرق الاصطلاحية، والأوضاع المتداولة الحادثة، هذه هي التي قطعت أكثرَ الخلْق عن الله، وهم لا يشعرون.

والعجب أن أهلها: هم المعروفون بالطلب والإرادة، والسير إلى الله. وهم -إلَّا الواحد بعد الواحد- المقطوعون عن الله بتلك الرسوم والقيود.

وقد سُئل بعض الأئمة عن السُّنَّة؟ فقال: ما لا اسم له سوى «السُّنَّة» يعني: أن أهل السُّنَّة ليس لهم اسم يُنْسَبُون إليه سواها.

فمن الناس: من يتقيَّد بلباس لا يلبس غيره، أو بالجلوس في مكانٍ لا يجلس في غيره، أو مِشيةٍ لا يمشي غيرها، أو بزيٍّ وهيئةٍ لا يخرج عنهما، أو بعبادةٍ معينة لا يتعبَّد بغيرها، وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معيَّن لا يلتفت إلى غيره، وإنْ كانَ أقربُ إلى الله ورسوله منه. فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظفَر بالمطلوب الأعلى، مصدودون عنه، قد قيَّدتهم العوائد والرسومُ والأوضاع والاصطلاحات عن تجريد المتابعة، فأضحَوْا عنها بمعزل، ومنزلتُهم منها أبعدُ منزل، فترى أحدَهم يتعبَّد بالرياضة، والخلْوة، وتفريغ القلب، ويَعُدُّ العلمَ قاطعًا له عن الطريق، فإذا ذُكِر له الموالاة في الله، والمعاداة فيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عَدَّ ذلك فضولًا وشرًّا. وإذا رأوا بينهم من يقوم بذلك: أخرجوه من بينهم، وعَدُّوه

غَيْرًا عليهم، فهؤلاء أبعد الناس عن الله، وإنْ كانوا أكثر إشارة»[١].

عُلاةُ الهِمم والرُّسُل:

▫ يقول ابنُ القيم عن اختلاف أحوال الناس مع الرسل، وانقسامهم أقْسامًا: فقال عن هذه الطوائف:

▫ «الطائفة الثالثة: ركِبت ظهورَ عزائمها، ورأت أن بلاد المَلِك أوْلَى بها، فوطَّنت أنفسها على قصدها، ولم يُثنيها لوم اللُّوَّام، لكن في سيرها بطء بحسب ضعْف ما كُشِف لها من أحوال تلك البلاد وحال المَلِك.

▫ والطائفة الرابعة: جَدَّت في السَّيْر وواصلَتْه، فسارت سيرًا حثيثًا، فهُم كما قيل:

وَرَكْبٍ سَرَوْا والليلُ مُرْخٍ سُدُوله ... على كُلِّ مُغبَرِّ المطالعِ قاتِمِ

حَدَوا عَزَماتٍ ضاعت الأرض بينها ... فصارَ سُرَاهم في ظهور العزائِمِ

تُريهم نجومُ الليل ما يطلبونه ... على عاتِقِ الشِّعْرَى وهامِ النعائِمِ

فهؤلاء هممهم مصروفة إلى السَّيْر، وقواهم موقوفة عليه من غير تثنية[٢] منهم إلى المقصود الأعظم، والغاية العُليا.

▫ والطائفة الخامسة: أخذوا في الجدِّ في المسير، وهمتهم متعلِّقة بالغاية، فهم في سيرهم ناظرون إلى المقصود بالمسير، فكأنهم يشاهدونه من بُعْد، وهو يدعوهم إلى نفسه وإلى بلاده، فهم عامِلون على الشاهد الذي قام بقلوبهم.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٧٣ - ١٧٤، ١٧٥ - ١٧٦).

(٢) أي: من غير انثناء ولا التفات.

وعمل كل أحد منهم على قدْر شاهده. فمن شاهَد المقصود بالعمل في علمه كان نصحُه فيه، وإخلاصُه وتحسينه، وبذلُ الجهد فيه: أتمَّ ممن لم يشاهده ولم يلاحظه. ولم يجدْ من التعب والنصب ما يجده الغائب، والوجود شاهد بذلك. فمن عمل عملًا لملك بحضرته، وهو يشاهده: ليس حاله كحال من عمل في غيبته وبعده عنه، وهو غير متيقن وصوله إليه.

وقوله: «ويصحح همة القاصد»، أي: ويصححُ له صفاءَ هذا العلم همتَه، ومتى صحَّت الهمة علت وارتفعت. فإن سقوطَها ودناءتها من علتها وسقمها، وإلَّا فهي كالنار تطلبُ الصعود والارتفاع ما لم تُمنع.

وأعلى الهمم: همةٌ اتصلت بالحق سبحانه طلبًا وقصدًا. وأوصلت الخلق إليه دعوةً ونصحًا. وهذه همةُ الرسل وأتباعهم. وصحتُها: بتميزها، من انقسام طلبها، وانقسام مطلوبها، وانقسام طريقها. بل توحَّد مطلوبها بالإخلاص، وطلبها بالصدق، وطريقُها بالسلوك خلفَ الدليل الذي نصبه الله دليلًا. لا مَنْ نصبه هو دليلًا لنفسه.

ولله الهمم! ما أعجبَ شأنها، وأشد تفاوتها. فهمةٌ متعلقةٌ بمن فوق العرش. وهمةٌ حائمةٌ حول الأنتان والحُشِّ. والعامةُ تقول: قيمةُ كل امريء ما يحسنه. والخاصةُ تقول: قيمةُ المرء ما يطلبه. وخاصةُ الخاصة تقول: همة المرء إلى مطلوبه.

وإذا أردتَ أن تعرف مراتب الهمم، فانظر إلى همة ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه -وقد قال له رسولُ الله ﷺ: «سلني»-، فقال: «أسألُك مرافقتك في الجنة»، وكان غيرُه يسأله ما يملأ بطنه، أو يواري جلده.

وانظر إلى همة رسول الله ﷺ -حين عُرضت عليه مفاتيحُ كنوز الأرض - فأباها، ومعلومٌ أنه لو أخذها لأنفقها في طاعة ربه تعالى، فأبت له تلك الهمَّةُ العالية أن يتعلَّق منها بشيءٍ ممَّا سوى الله ومحابِّه. وعُرض عليه أن يتصرَّف بالمُلْك، فأباه. واختار التصرُّف بالعبوديَّة المحضة. فلا إله إلَّا الله خالق هذه الهمَّة، وخالقِ نفس تحملُها، وخالق همم لا تعدوهم أخسَّ الحيوانات»[1].

واشوقاه إلى أوقات البداية:

قالها الجنيد العابد والإمام، وهو الخبير بالطريق إلى الله. وقد قالوا: أولَ الأمر خطوةُ هول.. ائت الديارَ البِكر، وائتِ في التنافس بجديد، وارتَدْ كل يوم منزل فقيل لا يُعرَف لأحد قبلك.

ففي بدايات السلوك إلى الله، وعلوِّ الهمة في الطلب، لا يلتفتُ العبد إلى ما وراءه لشغله بما بين يديه، وغلبةِ أحكام الهمَّة عليه، وجمع الهمة على الطلب والسير إلى الله.

• «مرَّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه على رجل، وهو يبكي من خشية الله فقال: «هكذا كنا حتى قست قلوبنا.

وقد أخبر النبي ﷺ: «**إن لكل عامل شِرَّة، ولِكُلِّ شِرَّة فترة**».

فالطالبُ الجادُّ لابد أن تَعرض له فترة، فيشتاق في تلك الفترة إلى حاله وقت الطلب والاجتهاد»[2].

فلتسامي أخلاقُنا صُعُدًا ونعود إلى بداياتنا.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٤٦- ١٤٨).

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٢٥).

طاحت الإشارات وغابت العبارات ولم تنفعنا إلا ركيعات:

□ قال الجُنَيْد: «العبادةُ على العارفين أحسنُ من التِّيجان على رؤوس الملوك»[١].

□ ورأى محمدُ بن إبراهيم الجُنَيْد سيد الطائفة في المنام بعد موته فقال له: «ما فعل الله بك؟ قال: «طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفَنِيت تلك العلوم، ونَفِدت تلك الرُّسوم، وما نفعنا إلَّا رُكَيْعات كنَّا نركعها في الأسحار»[٢].

والجُنَيْد يقولُ طاحتْ ... كلُّ عِلْمٍ وإشارَة
ورسومات تلاشت ... وانمَّحَتْ تلك العبارة
وركيعات توالتْ ... سَحَرًا فيها البشارة
ورأيْنا في المآل ... ذلك الكنز الدَّفِينا
فاز من قام الليالي ... بصلاة الخاشعينا

حافظ على علو همتك:

البحث عن ما يجرى للناس، وطلب تعرُّفِ أحوالهم «يَحُطُّ الهمم العالية من أَوْجها إلى حضيضها وربما يعزُّ عليه أن يُحَصِّل همةً أخرى يصعد بها إلى موضعه الذي كان فيه، فأهلُ الهمم والفِطَن الثاقبة لا يفتحون من آذانهم وقلوبهم طريقًا إلى ذلك، إلَّا ما تقاضاه الأمر وكانت مصلحتُه أرجح، وما عداه فبطالةٌ وحطُّ مرتبة»[٣].

---

(١) «الحلية» (١٠/ ٢٥٧).
(٢) المصدر السابق (١٠/ ٢٥٧).
(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ١٨١).

الغرباء وغربة الهِمَّة:

الغرباء الممدوحون المغبوطون لله درُّهم.. أهلُ الإسلام في الناس غرباء. والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء. وأهلُ العلم في المؤمنين غرباء.

وأهل السنة -الذين يميزونها من الأهواء والبدع- فهم غرباء. والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين: هم أشدُّ هؤلاء غربةً. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًّا. فلا غربةَ عليهم. وإنما غربتُهم بين الأكثرين، الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦] فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه. وغربتُهم هي الغربة الموحشة. وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم. كما قيل:

فليس غريبًا من تناءت دياره ... ولكِنَّ من تَنأيْنَ عنه غريبُ

◻ ولما خرج موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هاربًا من قوم فرعون انتهى إلى مدين، على الحال التي ذكر الله. وهو وحيد غريب خائف جائع. فقال: «يا رب، وحيدٌ مريضٌ غريب. فقيل له: يا موسى، الوحيد: مَن ليس له مثلي أنيس. والمريض: مَن ليس له مثلي طبيب. والغريب: من ليس بيني وبينه معاملة».

◻ فالغربةُ ثلاثة أنواع: غربةُ أهل الله وأهلُ سنة رسوله بين هذا الخلق. وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها. وأخبر عن الدين الذي جاء به: أنه «**بدأ غريبًا**»، وأنه «**سيعود غريبًا كما بدأ**»، وأن «**أهله يصيرون غرباء**».

◻ وهذه الغربة قد تكونُ في مكان دون مكان، ووقتٍ دون وقت، وبين قوم دون قوم. ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقًّا. فإنهم لم

يأووا إلى غير الله. ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ. ولم يدْعوا إلى غير ما جاء به. وهم الذين فارقوا الناس أحوجَ ما كانوا إليهم. فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقُوا في مكانهم. فيقال لهم: «ألا تنطلِقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: «فارقنا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليوم. وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده».

□ فهذه «الغربة» لا وحشةَ على صاحبها. بل هو آنَسُ ما يكون إذا استوحش الناس. وأشدُّ ما تكون وحشته إذا استأنسوا. فوليُّه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

□ ومن صفات هؤلاء الغرباء -الذين غبطهم النبي ﷺ-: التمسك بالسنة، إذا رغب عنها الناس. وتركُ ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم. وتجريدُ التوحيد. وإن أنكر ذلكم أكثر الناس. وتركُ الانتساب إلى أحد غيرِ الله ورسوله. لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة. بل هؤلاء الغرباءُ منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًّا. وأكثر الناس -بل كلهم- لائِمٌ لهم.

فلغربتهم بين هذا الخلق يَعُدُّونهم أهل شذوذٍ وبدعة ومفارقة للسَّواد الأعظم.

□ والإسلام الحق -الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم- هو اليوم أشدُّ غربةً منه في أول ظهوره. وإن كانت أعلامُه ورسومه الظاهرةُ مشهورةً معروفة. فالإسلام الحقيقي غريب جدًّا. وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فِرقةٌ واحدة قليلة جدًّا، غريبةً بين اثنتين وسبعين فرقة. ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات. ولا يقوم لها سوق إلَّا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فإن نفْس ما جاء به: يضاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإرادتهم؟

• فكيف لا يكون المؤمنُ السائرُ إلى الله على طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شُحَّهم، وأُعجب كل منهم برأيه؟ كما قال النبي ﷺ: «**مُرُوا بالمعروف. وانهَوا عن المنكر. حتى إذا رأيتم شُحًّا مطاعًا وهوًى متبعًا، ودنيا مُؤْثَرة، وإعجابَ كل ذي رأيٍ برأيه. ورأيتَ امرًا لا يَدَ لك به، فعليك بخاصةِ نفسك. وإياك وعوامَّهم. فإن وراءكم أياما صبر الصابر فيهن كالقابض على الجمر**»، ولهذا جُعل للمسلم الصادق في هذا الوقت -إذا تمسك بدينه-: أجر خمسين من الصحابة. ففي سنن أبي داود والترمذي- من حديث أبي ثعلبة الخُشَني- قال: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف. وتناهوا عن المنكر. حتى إذا رأيت شُحًّا مطاعًا، وهوًى متبعًا، ودنيا مُؤثَرة، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه. فعليك بخاصةِ نفسك، ودع عنك العوامَّ؛ فإن من وراءكم أيام الصبر. الصبر فيهن مثلُ قبضٍ على الجمر. للعامل فيهن أجرُ خمسين رجلًا يعملون مثل عمله**». قلت: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: «**أجرُ خمسين منكم**»، وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن، الذي قد رزقه الله بصيرةً في دينه، وفقهًا في سنة رسوله، وفهمًا في كتابه، وأراه ما الناسُ فيه: من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم. فإذا أراد أن يسلكَ هذا الصراط: فليوطِّن نفسه على قدْح الجهال، وأهل البدع فيه، وطعنِهم عليه، وإزرائهم به. وتنفيرِ الناس عنه، وتحذيرهم منه. كما كان سلفُهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ. فأما إن دعاهم إلى ذلك، وقدَح فيما هم عليه: فهنالك تقومُ قيامتهم. ويبغُون له الغوائل. وينصِبون له الحبائل، ويجلِبون عليه بخيل كبيرهم ورَجْله.

فهو غريبٌ في دينه لفساد أديانهم، غريبٌ في تمسُّكه بالسنة؛ لتمسُّكهم بالبدع. غريبٌ في اعتقاده؛ لفساد عقائدهم، غريبٌ في صلاته؛ لسوء صلاتهم، غريبٌ في طريقه؛ لضلال وفساد طرقهم، غريبٌ في نسبته؛ لمخالفة نِسَبهم، غريبٌ في معاشرته لهم؛ لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريبٌ في أمور دنياه وآخرته، لا يجد من العامَّة مساعدًا ولا معينًا، فهو عَالِمٌ بين جُهَّال، صاحب سُنَّة بين أهل بدع، داعٍ إلى الله ورسوله بين دعاةٍ إلى الأهواء والبدع، آمِرٌ بالمعروف، ناهٍ عن المنكر بين قومٍ المعدوم لديهم منكرٌ والمنكَر معروف»[1].

غربة الهمَّة:

«وهي غربةُ طلب الحق، وهي غربةُ العارف؛ لأن العارفَ في شاهده

(١) انظر «مدارج السالكين» (٣/ ١٩٥ - ٢٠٠).

غريب، ومصحوبه في شاهده غريب، فغربة العارف: غربة الغربة؛ لأنه غريب الدنيا والآخرة.

إنَّ همَّة العارف حائمةٌ حول معروفه، فهو غريبٌ في أبناء الآخرة، فضلًا عن أبناء الدنيا، كما أن طالب الآخرة غريبٌ في أبناء الدنيا.

قوله: «لأن العارف في شاهده غريب» شاهد العارف: هو الذي يشهد عنده وله بصحَّة ما وجد، وأنه كما وجد، وبثبوت ما عرف، وأنه كما عرف.

وهذا الشاهد: أمرٌ يجده من قلبه. وهو قُربه من الله، وأنسه به، وشدة شوقه إلى لقائه، وفرحه به، فهذا شاهدٌ في سرِّه وقلبه.

وله شاهدٌ في حاله وعمله، يصدِّق هذا الشاهد الذي في قلبه.

وله شاهدٌ في قلوب الصادقين، يصدِّق هذيْن الشاهديْن؛ فإن قلوب الصادقين لا تشهد بالزُّور ألبتة، فإذا خفى عليك شأنك وحالك، فاسأل عنك قلوب الصادقين فإنها تخبرك عن حالك.

قوله: «ومصحوبُه في شاهده غريب» مصحوبه في شاهده: هو الذي يصحبه فيه من العلم والعمل والحال. وهو غريبٌ بالنسبة إلى غيره ممن لم يذُقْ طعم هذا الشأن، بل هو في وادٍ وأهله في وادٍ.

«وهو غريبُ الدنيا، وغريب الآخرة»، يعني: أن أبناء الدنيا لا يعرفونه؛ لأنه ليس منهم، وأهل الآخرة -العُبَّاد الزُّهَّاد- لا يعرفونه؛ لأن شأنه وراء شأنهم؛ همتُهم متعلقةٌ بالعبادة، وهمَّته متعلِّقة بالمعبود، مع قيامه بالعبادة، فهو يرى الناس، والناس لا يرونه، كما قيل:

تستَّرْتُ من دهـري بظـلِّ جناحـهِ فعيني تـرى دهـري ولـيس يـراني
فلو تسأل الأيام: ما أسمي؟ لما دَرَت وأين مكاني؟ ما عَرَفن مكـاني»[1]

عكوف الهمة على استفراغ القلب في صِدْق الحب، وبذلِ الجهد في امتثال الأمر صفة المحب المحبوب (حياة عالي الهمَّة):

تكلم الإمامُ ابن قيم الجوزية عن «المرتبة الثامنة من مراتب الحياة: حياة الفرح والسرور، وقرَّة العين بالله» فقال: «وهذه الحياة إنما تكونُ بعد الظَّفَر بالمطلوب، الذي تقرُّ به عين طالبه، فلا حياةَ نافعةً له بدونه، وحول هذه الحياة يدندنُ الناسُ كلهم، وكلهم قد أخطؤوا طريقَها، وسلك طرقًا لا تُفضِي إليها، بل تقطعه عنها إلَّا أقل القليل.

فدار طلب الكُلِّ حول هذه الحياة وحُرِقها أكثرهم.

وسبب حرمانهم إيَّاها: ضعفُ العقل والتمييز والبصيرة، وضعف الهمَّة والإرادة. فإن مادَّتها بصيرةٌ وقَّادة، وهِمَّةٌ نقَّادة. والبصيرة كالبصر تكون عميً وعَورًا وعَمَشًا ورمدًا، وتامة النور والضياء.

فإنْ قلتَ: قد أشرتَ إلى حياةٍ غير معهودة بين أموات الأحياء، فهل يمكنك وصفُ طريقها، لِأَصِلَ إلى شيءٍ من أذْواقها؟.

قلت: لعمر الله إن اشتياقك إلى هذه الحياة، وطلبَ علمها ومعرفتها: لدليل على حياتِك، وأنك لستَ من جملة الأموات.

فأوَّلُ طريقها: أن تعرف اللهَ، وتهتدي إليه طريقًا يوصِّلك إليه، ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة، فيقومُ بقلبه شاهدٌ من شواهد الآخرة،

---

(١) انظر «مدارج السالكين» (٣/ ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥).

فينجذبُ إليها بكُليته، ويزهد في التعلُّقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيَّات الظاهرة والباطنة، ثم يقوم حارسًا على قلبه، فلا يسامحه بخطرة يكرهُها الله، ولا بخطرةِ فضول لا تنفعه، فيصفو بذلك قلبُه عن حديث النَّفْس، ووسواسها، فيُفْدَى من أسرها، ويصير طليقًا، فحينئذٍ يخلو قلبه بذكر ربِّه، ومحبته والإنابة إليه، ويخرج من بيوتِ طبعه ونفسه، إلى فضاءِ الخَلْوة بربه وذكره، كما قيل:

وأخرجُ من بين البيوت، لعلَّني ... أُحدِّث عنكَ النفس في السِّرِّ خاليًا

فحينئذٍ يجتمع قلبُه وخواطره وحديثُ نفسه على إرادة ربه، وطلبه والشوق إليه.

فإذا صدق في ذلك رُزق محبةَ الرسول ﷺ، واستولت روحانيتُه على قلبه. فجعله إمامَه ومعلِّمه، وأستاذَه وشيخه وقدوته، كما جعله اللهُ نبيَّه ورسولَه وهاديًا إليه. فيطالعُ سيرته ومبادئ أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرفُ صفاتِه وأخلاقَه وآدابَه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصيرَ كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبُه في ذلك: فُتح عليه بفهم الوحي المنزل عليه من ربه، بحيث لو قرأ السورة شاهد قلبُه ما أنزلت فيه، وما أريد بها. وحظه المختص به منها، من الصفات والأخلاق، والأفعال المذمومة. فيجتهدُ في التخلص منها كما يجتهدُ في الشفاء من المرض المخُوف. وشاهد حَظَّه من الصفات والأفعال الممدوحة. فيجتهد في تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكَّن من ذلك: انفتح في قلبه عينٌ أخرى. يشاهد بها صفاتِ الرب جل جلاله، حتى تصير لقلبه بمنزلةِ المرئي لعينه. فيشهد علوَّ الرب سبحانه فوق خلقه، واستواءه على عرشه، ونزولَ الأمر من عنده بتدبير مملكته، وتكليمه بالوحي، وتكليمه لعبده جبريل به، وإرسالَه إلى من يشاء بما يشاء، وصعودَ الأمور إليه، وعرضها عليه.

فيشاهد قلبُه ربًّا قاهرًا فوق عباده، آمرًا ناهيًا، باعثًا لرسله، منزلًا لكتبه، معبودًا مطاعًا. لا شريك له ولا مثيل، ولا عدل له. ليس لأحد معه من الأمر شيءٍ، بل الأمرُ كله له . فيشهد ربَّه سبحانه قائمًا بالملك والتدبير. فلا حركة ولا سكون، ولا نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط إلَّا بقدرته وتدبيره. فيشهد قيامَ الكون كلِّه به، وقيامه سبحانه بنفسه. فهو القائم بنفسه، المقيم لكلِّ ما سواه.

فإذا رسخ قلبُه في ذلك: شهد الصفةَ المصحِّحةَ لجميع صفات الكمال. وهي «الحياة» التي كمالُها يستلزمُ كمالَ السمع والبصر، والقدرة والإرادة، والكلام، وسائر صفات الكمال. وصفة «القيومية» الصحيحة المصححة لجميع الأفعال. فالحي القيوم: مَن له كلُّ صفةِ كمال. وهو الفعَّال لما يريد.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: فُتح له مشهدُ «القرب» و«المعية» فيشهدُه سبحانه معه، غيرَ غائب عنه، قريبًا غير بعيد، مع كونه فوقَ سماواته على عرشه، بائنًا من خلقه، قائمًا بالصنع والتدبير، والخلق والأمر. فيحصل له -مع التعظيم والإجلال- الأنسُ بهذه الصفة. فيأنس به بعد أن كان مستوحشًا. ويقوى به بعد أن كان ضعيفًا. ويفرحُ به بعد أن كان حزينًا. ويجد بعد أن كان فاقدًا. فحينئذٍ يجد طعم قوله: «**ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ**

إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه. فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصره الذي يُبصِرُ به، ويده التي يبطشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

فاطيبُ الحياة على الاطلاق: حياةُ هذا العبد. فإنه محبٌّ محبوب، متقرِّبٌ إلى ربه، وربُّه قريبٌ منه. قد صار له حبيبَه لفرط استيلائه على قلبه، ولَهَجه بذكره، وعكوفِ همته على مرضاته، بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله، وهذه آلاتُ إدراكه وعمله وسعيه. فإنْ سَمِع سمع بحبيبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بَطش بطش به، وإن مشى مشى به.

فإن صعُب عليك فهمُ هذا المعنى، وكونُ المحب الكامل المحبة يسمع ويُبصر ويَبطش ويمشي بمحبوبه، وذاتُه غائبةٌ عنه، فأضرب عنه صفحًا، وخَلِّ هذا الشأن لأهله.

خـل الهـوى لأنـاس يُعْرَفـون بـه ... قد كابدوا الحب حتى لانَ أصْـعبه

فإن السالكَ إلى ربه لا تزال همتُه عاكفةً على أمرين: استفراغ القلب في صدقِ الحب، وبذلِ الجهد في امتثال الأمر. فلا يزال كذلك حتى يبدوَ على سِره شواهدُ معرفته، وآثار صفاته وأسمائه. ولكن يتوارى عنه ذلك أحيانًا. ويبدو أحيانًا، يبدو من عين الجود، ويتوارى بحكم الفترة، والفتراتُ أمرٌ لازم للعبد، فكل عامل له شِرَّة، ولكل شرةٍ فترة. فأعلاها فترةُ الوحي. وهي للأنبياء، وفترةُ الحال الخاص للعارفين، وفترةُ الهمة للمريدين، وفترةُ العمل للعابدين، وفي هذه الفترات أنواعٌ من الحكمة والرحمة، والتعرُّفات الإلهية، وتعريفُ قدْر النعمة. وتجديدُ الشوق إليها، ومحضُ التواجد إليها وغير ذلك.

ولا تزالُ تلك الشواهد تتكررُ وتتزايد، حتى تستقرَّ، وينصبغ بها قلبُه، وتصيرَ الفترةُ غيرَ فاطمة له، بل تكونُ نعمةً عليه وراحةً له، **وترويحًا** وتنفيسًا عنه. فهمةُ المحب إذا تعلقت روحُه بحبيبه، **عاكفًا على مزيد** محبته، وأسباب قوتها. فهو يعملُ على هذا، ثم يترقى منه إلى **طلب محبةِ** حبيبه له. فيعملُ على حصول ذلك، ولا يَعدِمُ الطلبَ الأول، **ولا يفارقه** ألبتة. بل يندرجُ في هذا الطلب الثاني، فتتعلقُ همتُه بالأمرين جميعًا، **فإنه إنما** يحصلُ له منزلة «**كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به**» بهذا الأمر الثاني، وهو كونُه محبوبًا لحبيبه، كما قال في الحديث: «**فإذا أحببتُه كنت سمعه وبصره..**» إلخ.. فهو يتقرب إلى ربه، حفظًا لمحبته له، واستدعاء لمحبة ربه له.

فحينئذٍ يَشُدُّ مِئْزر الجِدِّ في طلب محبةِ حبيبه له بأنواع التقرُّب إليه. فقلبه: للمحبة والإنابة والتوكل، والخوف والرجاء، ولسانُه: للذكر وتلاوة كلام حبيبه. وجوارحُه: للطاعات، فهو لا يفتر عن التقرب من حبيبه.

وهذا هو السيرُ المُفضي إلى هذه الغاية التي لا تُنال إلَّا به، ولا يتوصل إليها إلَّا من هذا الباب، وهذه الطريق، وحينئذٍ تجمع له في سيره جميع متفرقاتِ السلوك: من الحضور، والهيبة، والمراقبة، ونفي الخواطر، وتخلية الباطن.

فإن المحب يشرع -أولًا- في التقربات بالأعمال الظاهرة، وهي ظاهرُ التقرب، ثم يترقى من ذلك إلى حالِ التقرب، وهو الانجذابُ إلى حبيبه بكليته بروحه وقلبه، وعقلِه بدنه، ثم يترقى من ذلك إلى حال الإحسان،

فيعبدُ اللهَ كأنه يراه، فيتقربُ إليه حينئذٍ من باطنه بأعمال القلوب: من المحبة والإنابة، والتعظيم والإجلال والخشية، فينبعث حينئذٍ من باطنه الجودُ ببذل الروح، والجودُ في محبة حبيبه بلا تكلف، فيجودُ بروحه ونفْسه، وأنفاسه وإرادته، وأعماله لحبيبه حالًا، لا تكلفًا.

فإذا وجد المحبُّ ذلك فقد ظفِر بحال التقرب وسرِّه وباطنه. وإن لم يجده فهو يتقرب بلسانه وبدنه وظاهره فقط، فَلَيَدُم على ذلك، وليتكلف التقرب بالأذكار والأعمالَ على الدوام، فعساه أن يحظَى بحالِ القرب.

ووراء هذا «القرب الباطن» أمرٌ آخر أيضًا، وهو شيءٌ لا يعبَّرُ عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلق إلى الله رسول الله ﷺ عن هذا المعنى، حيث يقول حاكيًا عن ربه تبارك وتعالى: «**مَن تقرَّب مني شبرًا، تقربتُ منه ذراعًا، ومن تقرَّب مني ذراعًا، تقرَّبت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً**»، فيجد هذا المحبُّ في باطنه ذَوْقَ معنى هذا الحديث ذوقًا حقيقيًّا.

فذَكَر من مراتب القُرب ثلاثةً، ونبَّه بها على ما دونها وما فوقها، فذَكَر تقرب العبدِ إليه بالبر، وتقربَه سبحانه إلى العبد ذراعًا، فإذا ذاق العبدُ حقيقةَ هذا التقرب، انتقل منه إلى تقرُّب الذراع، فيجد ذوقَ تقرب الرب إليه باعًا، فإذا ذاق حلاوةَ هذا القرب الثاني، أسرع المشيَ حينئذٍ إلى ربه، فيذوقُ حلاوة إتيانه إليه هرولةً، وهاهنا منتهى الحديث، منبهًا على أنه إذا هَرْوَل عبدُه إليه كان قربُ حبيبه منه فوقَ هرولة العبد إليه، فإما أن يكون قد أمسك عن ذلك لعظيم شاهِد الجزاء، أو لأنه يدخلُ في الجزاء الذي لم تسمعْ به أُذُن، ولم يخطر على قلب بشر، أو إحالةً له على المراتب المتقدمة، فكأنه قيل له: وقِسْ على هذا، فعلى قدْر ما تبذلُ منك متقربًا إلى ربك:

يتقربُ إليك بأكثر منه، وعلى هذا فلازمُ هذا التقربِ المذكور في مراتبه، أي من تقرب إلى حبيبه برُوحه وجميع قواه، وإرادته وأقواله وأعماله: تقرب الربُّ منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرُّب عبده إليه.

وليس القربُ في هذه المراتب كلها قربَ مسافةٍ حسية، ولا مماسة. بل هو قربٌ حقيقي. والربُّ تعالى فوق سماواته على عرشه، والعبدُ في الأرض.

وهذا الموضعُ هو سرُّ السلوك، وحقيقةُ العبودية. وهو معنى الوصول الذي يدندن حولَه القوم.

وملاك هذا الأمر: هو قصدُ التقرب أولًا، ثم التقرب ثانيًا. ثم حال القرب ثالثًا، وهو الانبعاث بالكلية إلى الحبيب.

وحقيقةُ هذا الانبعاث: أن تفنَى بمراده عن هواك، وبما منه عن حظك. بل يصيرُ ذلك هو مجموعَ حظِّك ومرادك. وقد عرفتَ أن من تقرب إلى حبيبه بشيءٍ من الأشياء جوزي على ذلك بقربٍ هو أضعافه، وعرفتَ أن أعلى أنواع التقرب: تقربُ العبد بجملته -بظاهره وباطنه، وبوجوده- إلى حبيبه، فمَن فعل ذلك فقد تقرب بكلِّه، ولم تبقَ منه بقيةٌ لغير حبيبه، كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقيةٌ … يجدُ السبيلَ بها إليه العُذَّلُ

وإذا كان المتقرِّبُ إليه بالأعمال يُعطي أضعافَ أضعافِ ما تقرب به، فما الظن بمن أُعْطِي حالَ التقرب وذوقه ووجده؟ فما الظن بمن تقرب إليه بروحه، وجميع إرادته وهمته، وأقواله وأعماله؟.

ما زلتُ أنزل من ودادِك منزلًا … تتحيَّرُ الألبابُ

وعلى هذا فكما جاد لحبيبه بنفسه، فإنه أهل أن يُجاد عليه، بأن يكون

ربُّه سبحانه هو حظَّه ونصيبه، عوضًا عن كل شيءٍ، جزاءً وفاقًا، فإن الجزاء من جنس العمل، وشواهد هذا كثيرة.

منها: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ففرَّق بين الجزائين كما ترى، وجعل جزاء المتوكِّل عليه كونَه سبحانه حسْبَه وكافيَه.

ومنها: أن الشهيد لما بذل حياتَه لله، أعاضه الله سبحانه حياةً أكمل منها عنده في محل قُربه وكرامته.

ومنها: أن مَن بذل لله شيئًا أعاضه الله خيرًا منه.

ومنها: قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة].

ومنها: قوله في الحديث القدسي: «مَن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومَن ذكرني في مَلإٍ ذكرته في مَلإٍ خير منه».

ومنها: قوله: «من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا» الحديث.

فالعبدُ لا يزال رابحًا على ربه أفضل مما قَدَّم له. وهذا التقرب، بقلبه وروحه وعمله: يفتح عليه ربه بحياة لا تشبه ما الناسُ فيه من أنواع الحياة. بل حياة من ليس كذلك بالنسبة إلى حياته: كحياة الجنين في بطن أمه بالنسبة إلى حياة أهل الدنيا ولذتهم فيها. بل أعظم من ذلك.

فهذا نموذج من بيان شرف هذه الحياة وفضلها، وإن كان علم هذا يوجب لصاحبه حياة طيبة، فكيف إن انصبغ القلب به، وصار حالًا ملازمًا لذاته؟ فالله المستعان.

فهذه الحياة: هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة. فمن فقدها ففقده

لحياته الطبيعية أولى به.

هـذي حيـاة الفتـى. فـإن فُقـدت ففقـده للحيـاة أليـق بـه»[١]

□ قال ابن القيم: «الأمر كله دائر على جمع الهمّة على الله، واستفراغ الوُسْع بغاية النصيحة في التقرّب إليه بالنوافل، بعد تكميل الفرائض»[٢].

عُلاة الهمم:

□ قال ابن القيم: «والقوم لهم طلب شديد وهمم عالية، ومطلبهم وهممهم عندهم فوق مطالب الناس وهممهم، فتشهد أرواحهم مقامات المنكر عليهم وسفولها، واستغراقه في حظوظه وأحكام نفسه وطبيعته، فلا تسَمَح نفوسهم بقبول قوله والرجوع إليه»[٣].

الصحابة السبّاقون إلى الخيرات رضي الله عنهم:

سبق الصحابة سائر الأمة.. بعلو همتهم.. هم القوم لم يوقف لسبقهم لهم على رسم، أو يُعفَ لهم على أثر.

□ ويرحم الله حسان بن ثابت رضي الله عنه إذ يقول فيهم:

إِنْ كان في الناس سَبَّاقون بعدهمُ فكُلُّ سَبْقٍ لأدنى سبقهم تبعُ

أعفّة ذُكِرَت في الوحي عِفَّتُهم لا يطمعون ولا يزري بهم طمعُ

□ قال ابن القيم رحمه الله: «إذا طلع نجمُ الهمّة في ليل البطالة، وردفة

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٦٦- ٢٧٤).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٤٣).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٢٣٩- ٢٤٠).

قمر العزيمة أشرقت أرض القلوب بنور ربِّها»[١].

وقال: «فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلَّا بأعلاها وأفضلها، وأحمدها عاقبة.

والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار؛ فالنفوس العلية لا ترضى بالظلم، ولا بالفواحش، ولا بالسرقة، ولا بالخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك، والنفوس الحقيرة بالضد من ذلك»[٢].

وقال: «فمن علت همته، وخشعت نفسه، اتصف بكل جميل، ومن دنت همته، وطغت نفسه –اتصف بكل خلق رذيل»[٣].

وقال: «إنما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور»[٤].

وقال: «أَلِفْتَ عجز العادة؛ فلو عَلَتْ بك هِمَّتُك ربا المعالي –لاحت لك أنوار العزائم».

وقال: «نزول همة الكساح [٥] دلَّاه في جبِّ العَذِرَةِ»[٦].

وقال: «من تلمَّح حلاوة العافية هانت عليه مرارة الصبر»[٧].

وقال: «لو خرج عقلك من سلطان هواك عادت الدولة إليه»[١].

---

(١) «الفوائد» (ص٧٩).

(٢) المصدر السابق (ص٢٦٦).

(٣) الفوائد» (ص٧٧).

(٤) «الفوائد» (ص٧٧).

(٥) الكَسَّاح: هو الذي يزل الأوساخ، ويكنس الطرقات. ودَلَّاه: يعني أنزله.

(٦) «الفوائد» (ص٧٧).

(٧) المصدر السابق (ص٦٧).

وقال: «نور العقل يضيء في ليل الهوى، فتلوح جادة الصواب، فيتلمح البصير في ذلك عواقب الأمور»[٢].

وقال: «القواطع محنٌ يتبين بها الصادق من الكاذب، فإذا خضتها انقلبت أعوانًا توصلك إلى المقصود»[٣].

وقال: «إذا جن الليل تغالب النوم والسهر، فالخوف والشوق في مقدم عسكر اليقظة، والكسل والتواني في كتيبة الغفلة، فإذا حمل العزم على الميمنة انهزمت جنود التفريط، فما يطلع الفجر إلَّا وقد قسمت السهمان، وبردت الغنيمة لأهلها»[٤].

م- وقال: «سفر الليل لا يطيقه إلَّا مُضَمَّرُ المجاعةِ، النجائبُ في الأول، وحاملات الزاد في الأخير»[٥].

ن- وقال: «بينك وبين الفائزين جبل الهوى، نزلوا بين يديه، ونزلت خلفه، فاطوِ فضلَ منزلٍ تلحق بالقوم»[٦].

س- وقال: «إنما يُقطع السفر، ويصل المسافر بلزوم الجادة، وسير الليل.

فإذا حاد المسافر عن الطريق، ونام الليل كله فمتى يصل إلى

---

(١) «الفوائد» (ص٦٧).

(٢) المصدر السابق (ص٧٦).

(٣) «الفوائد» (ص٧٩).

(٤) «الفوئد» (ص٧٩).

(٥) «الفوائد» (ص٧٩).

(٦) «الفوائد» (ص٧٧).

مقصدة؟»[١].

□ رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لا تصغرَنَّ هِمَّتُكم؛ فإني لم أرَ أقعد عن المكرمات من صغر الهمم»[٢].

□ قال الإمام مالك رحمه الله: «وعليك بمعالي الأمور وكرائمها، واتق رذائلها وما سف منها؛ فإن الله تعالى يحب معالي الأمور ويكره سفسافها»[٣].

□ قال بعض الحكماء: «الهمة راية الجد»[٤].

□ قال بعض البلغاء: «علو الهمم بذر النعم»[٥].

□ وروي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قوله:

إذا أظمأتك أكفُّ الرجال ... كفتك القناعة شبعًا وريا

فكن رَجُلًا رِجْلُه في الثرى ... وهامةُ همَّتِه في الثريا[٦]

□ وقال عنترة:

دعوني أُجدُّ السعي في طلب العلا ... فأدرك سؤلي أو أموت فأعذر[٧]

□ وقال:

---

(١) «الفوائد» (ص١٤٩).

(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٣١٩).

(٣) «أقوال مأثورة وكلمات جميلة» (ص٥٥٣)، نقلاً عن «ترتيب المدارك» (ص١٨٧ - ١٨٨).

(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص٣١٩).

(٥) «أدب الدنيا والدين» (ص٣١٩).

(٦) «ديوان الإمام علي» (ص٢١٧).

(٧) «ديوان عنترة» (ص١٤٧).

إن لي همـــةً أشـــدَّ مـــن الـــصخـ ـــر وأقوى من راسيات الجبـال [(١)]

□ وقال أحمد شوقي: «الطير يطير بجناحيه، والمرء يطير بهمته»[(٢)].

□ وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «يُروى عن أبجر بن جابر العجلي أنه قال فيما أوصى به ابنه حجارًا: إياك والسآمةَ في طلب الأمور، فتقذفك الرجال خلف أعقابها»[(٣)].

□ وقال بعضهم: «على طلاب العلا أن يوطنوا أنفسهم على اجتياز ألف عقبة، وأن يحسبوا لأنفسهم ألف هزيمة قبل الوصول إلى الظفر الأخير»[(٤)].

□ وقال أحمد شوقي:

والخلـد في الـدنيا ولـيس بهَـيِّنٍ عليـا المراتـب لم تُـتَحْ لجبـان
المجـد والـشرف الرفيـع صـحيفة جعلت لها الأخلاق كـالعنوان [(٥)]

□ وقال حافظ إبراهيم:

شَـمِّرْ وكـافِحْ في الحيـاة فهـذه دنيـاك دارُ تنـاحرٍ وكفـاح
وانهل مع النهال من عـذب الحيـا فـإذا رقـا فـامتح مـع المُتَّـاح
وإذا ألـح عليـك خطـب لا تهـن واضرب على الإلحاح بالإلحاح [(٦)]

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من علامة كمال العقل علو الهمة،

---

(١) «ديوان عنترة» (ص٢٠٠).
(٢) «أقوال مأثورة وكلمات جميلة» (ص٢٠٧).
(٣) «الأمثال» لأبي عبيد (ص٢٣٠).
(٤) «أقوال مأثورة» (ص٢١٤).
(٥) «الشوقيات» (٣/ ١٥٢).
(٦) «ديوان حافظ إبراهيم» (٢/ ١٠٣).

والراضي بالدرن دنيٌّ»[١].

□ وقال إبراهيم طوقان:

كفكف دموعك ليس ينـ ... فعك البكاء ولا العويلُ

وانهض ولا تشك الزما ... ن فما شكا إلَّا الكسول

واسلك بهمتك السبـ ... ـيل ولا تقل كيف السبيل

ما ضل ذو أمل سعى ... يومًا وحكمته الدليل

كلا ولا خاب امرؤ ... يومًا ومَقْصِدُه نبيل [٢]

□ وقال الثعالبي: «ومن أحسن ما قيل في علو الهمة قول ابن طباطبا العلوي:

له همة إنْ قستَ فرطَ علوِّها ... حسبت الثريَّا في قرار قليب [٣]

□ وقال ابن عبد القوي:

فلا تشتغل إلَّا بما يكسب العلا ... ولا ترضَ للنفس النفيسة بالردي

وقالوا عن علو الهمة:

□ «كن القائد الذي تعترك الجيوش حوله مِن بين زائدٍ عنه وعادٍ عليه، ولا تكن الجندي الذي يسفك دمه ليسقى به دوحة العظمة التي ينعم في

(١) «صيد الخاطر» (١/ ٣٩).
(٢) «ديوان إبراهيم طوقان» (ص٦٥- ٦٦).
(٣) «أحسن ما سمعت» (ص١٢٣).
(٤) «غذاء الألباب» (٢/ ٤٦٠).
(٥) «الهمة العالية.. معوِّقاتها ومقوِّماتها» لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص١٢٩- ١٣١)- دار القاسم.

ظلالها القائد العظيم».

□ كن الناطق الذي تحمل الريح صوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، ولا تكن الريح التي تختلف إلى آذان الناس بأصوات الناطقين من حيث لا يأبهون لها، ولا يعرفون لها يدها عندهم.

□ كن النبتة النضرة التي تعتلج ذرّات الأرض في سبيل نضرتها ونمائها، ولا تكن الذرّة التي تطؤها الأقدام، وتدوسها الحوافر والأخفاف.

□ كن زعيم الناس إن استطعت، فإن عجزت فكن زعيم نفسك، ولا تطلب العظمة من طريق التشيّع للعظماء والتلصّق بهم، أو مناصبتهم العداء والوقوف في وجههم، فإن فعلت كنت التابع الذليل، وكانوا الزعماء الأعِزّاء»[١].

□ وقالوا: «لقد آن الأوان أن تقف على أعتاب عمر جديد؛ لنعلن على الملأ مواطن الأقدام.. ولنبحث عن مواسم أكثر خصوبة فوق أرض أكثر أمنًا.. وأخصب مرتعًا.. وألين عريكة.. وأصفى وُدًّا، وتحت سماء تدرُّ خيرًا ولا تبخل بالعطاء.

- لماذا لا نُعطِّرُ بالأمل صباحنا مع إشراقة كل يوم جديد؟
- لماذا لا تأخذنا عزيمتنا إلى تحقيق المستحيل؟
- هل خُلقنا أقل قدرةً من غيرنا وأقل عزمًا ممَّن سبقونا؟
- أم أنَّ الأمر فينا ويعشِّش في نفوسنا؟

---

(١) انظر «النظرات» للمنفلوطي (ص٣/ ٦٤- ٦٥).

لكن أصحاب الهمم وأصحاب الغايات لا ينامون وإن أَغمضت جفونهم، ولا يستريحون وإن تجافت جنوبهم.. لماذا لا نكون ما دام فينا عرق ينبض؟

لماذا لا نصالح أحلامنا وإن جاءت متأخرة عن موعدها.. لكنها تمتدُّ فينا وتسري بداخلنا لتعتق في الوجدان ولتسافر في ثنايا جوارحنا حتى لا نترك أنفسنا لوحدتنا نقتات همومنا وتتلهَّى بنا أحزاننا»(١).

كن الراحلة التي تحمل هموم الأمة:

مِن الرجال من هو أمَّة يعدل آلاف الرجال، ومنهم لا يعدل جناح بعوض، والناس كما قال رسول الله ﷺ: **«الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة»**(٢).

□ كن كسفينة مولى رسول الله ﷺ قال رضي الله عنه: «اشترتني أم سلمة وأعتقتني واشترطت علي أن أخدم النبي ﷺ ما عشت. فقلت: أنا ما أحب أن أفارق النبي ﷺ ما عشت».

• وعن سعيد بن جهمان قال: سألت سفينة عن اسمه فقال: إني مخبرك باسمي، سماني رسول الله ﷺ سفينة، قلتُ: لِمَ سمّاكم سفينة؟ قال: خرج ومعه أصحابه، فثقل عليهم متاعهم فقال: «**ابسط كساءك**»، فبسطته فجعل فيه متاعهم، ثم حمله علي فقال: «**احمل ما أنت إلَّا سفينة**» قال: فلو حُمِّلت يومئذٍ وقرْ بعير أو بعيريْن أو خمسة، أو ستَّة، ما ثقل علي».

---

(١) «.إيقاظ الهمم» للدكتور إيهاب فؤاد (ص١١- ١٢)- دار الدعوة الإسكندرية.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في «صحيحه» رقم (٦١٣٣) (٥/ ٢٣٨٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٥٤٧) (٤/ ١٩٧٣).

فافهم الإشارة.. واحمل همومَ الأمة وارحل بآمالها، ولا تشتكي ثقل الهموم.. ولا تفارق دعوة النبي ما عشت.. عالي الهمة لا يضرُّه أن يغرِّد وحيدًا ما دام أنه يُغرِّد..

□ قال سفيان بن عيينة: «اسلكوا سبيل الحَق، ولا تستوحشوا من قلة أهلها».

□ وقال الفضيل بن عياض: «لا تستوحش طرق الهدى لقلة أهلها، ولا تغترنَّ بكثرة الهالكين، ولا يضرُّك قلة السالكين».

فتزوَّد زادًا يعينك على وعورة الطريق، ووحشته.. ولا زاد أفضل من علو الهمة لإصلاح الأمة.. قل: أنا لها.. أنا لها تكن على طريق سفينة.. وانظر كيف هابته الأسود.. ولك حظ من هذا إن سرت على طريقه، وحملت زاد الصحابة، بل وزاد الأمة وهمومها بأسرها.

□ عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: «ركبت سفينة في البحر فانكسرت، فركبت لوحًا فطرحني في أجمة [1] فيها أسد. قال: فقلت: يا أبا الحارث [2] أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ. قال: فطأطأ رأسه وجعل يدفعني بجنبه -أو بكتفه- حتى وضعني على الطريق، فلمَّا وضعني على الطريق همهم، فظننت أنه يودِّعني» [3].

النُّبُوغ وعلو الهمة:

□ قال الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي في كتابه «النظرات» تحت

(١) الغابة كثيرة الشجر الذي يلتفت بعضه على بعض.

(٢) كنية الأسد.

(٣) حسن: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» وهو حسن.

عنوان «النبوغ»: «من العجز أن يزدري المرءُ نفسه، فلا يُقيم لها وَزْنا، وأن ينظر إلى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم إلى الحيوان الناطق، وعندي أنَّ من يُخطيء في تقدير قيمته مُسْتعليًا، خيرٌ مِمَّنْ يُخطيء في تقديرها متدلِّيًا، فإن الرَّجُل إذا صَغُرت نفسُه في عين نفسه، يأبى لها من أعماله وأطواره إلَّا ما يشاكلُ منزلتها عندَه، فتراه صغيرًا في عِلْمِه، صغيرًا في أدبه، صغيرًا في مروءته وهِمَّته، صغيرًا في مِيُولِه وأهوائِه، صغيرًا في جميع شؤونه وأعمالِه؛ فإِن عَظُمَتْ نفسه، عَظُم بجانبها كلُّ ما كان صغيرًا في جانب النفس الصغيرة.

ولقد سأل أحدُ الأئمة العظماء ولدَه، وكان نجيبًا – أيَّ غاية تطلبُ في حياتِكَ يا بنيّ؟ وأيَّ رجلٍ من عظماءِ الرِّجال تُحِبُّ أنْ تكونَ؟ فأجابه: أُحِبُّ أن أكون مثلك.

فقال: ويحكَ يا بنيّ! لقد صَغُرَتْ نفسُك، وسَقطتْ هِمَّتُك، فلْتَبْكِ على عقلِك البوَاكي، لقد قدَّرتُ لنفسي، يا بُنيَّ، في مبدإِ نشأتي أن أكون كعليِّ ابن أبي طالب، فما زلت أجِدُّ وأكدَحُ حتى بَلَغْتُ المنزلة التي تراها، بيني وبين عليٍّ ما تعلم من الشأو [1] البعيد والمدَى الشاسع، فهل يسرُّك، وقد طلبتَ منزلتي أن يكون بينكَ وبيني من المدى مثلَ ما بيني وبين عليّ؟

كثيرًا ما يُخطئ الناسُ في التفريق بين التواضع، وصِغَرِ النَّفْس، وبين الكِبْر، وعلوِّ الهِمَّةِ، فيحسبون المتذلِّل المتملِّقَ الدنيء متواضِعًا، ويُسمُّون الرَّجُل إذا ترفَّع بنفسه عن الدنيا، وعَرَف حقيقة منزلته من المجتمع الإنساني متكبِّرًا؛ وما التواضع إلَّا الأدب، ولا الكِبْر إلَّا سوءُ الأدب.

---

(١) الشأو: الغاية، والهمّة.

فالرَّجُل الذي يلقاك مبتَسِمًا متهلِّلًا، ويُقبل عليك بوجهه، ويُصْغِي إليك إذا حدَّثْتَه ويزورُك مهنِّئًا، ومعزّيًا، ليس صغيرَ النفس كما يظنّون، بل هو عظيمُها، لأنَّه وجدَ التواضعَ أليق بعظمَةِ نفسِهِ، فتواضَعَ، والأدبَ أرفعَ لشأنِهِ، فتأدَبَ.

فتًى كانَ عَذْبَ الرّوح لا مِنْ غَضَاضَةٍ ولكــن كِــبْرًا أنْ يُقَــالَ بِــهِ كِــبْرُ

فإذا بلغَ الذلُّ بالرجل ذي الفضلِ أن ينكّسَ رأسَهُ للكُبَراءِ، ويتَهافَتَ على أيدِيهِمْ، وأقدامِهِمْ لَثْمًا، وتَقْبِيلًا، ويبتذلَ بمخالطةِ السوقةِ والغوغاءِ بلا ضرورةٍ، ولا سببٍ، ويُكْثِرَ من شَتْمِ نفسِهِ، وتحقيرِها، ورمْيِها بالجَهْلِ، والغباوَةِ، ويُبَصْبِصَ برأسِهِ، وهو سائرٌ في طريقِهِ بَصْبَصَةَ الكلبِ بذَنْبِهِ، ويجلِسَ في مدارجِ الطرقِ، وعلى أفواهِ الدروبِ جِلْسَةِ البائِسِ المسكين، فاعلمْ أنَّهُ صغيرُ النَفسِ ساقطُ الهِمَّةِ، لا متواضعٌ ولا متأدّبٌ.

□ إنَّ علُوَّ الهمَّةِ، إذا لم يخالِطْهُ كِبْرٌ يُزْرِي به، ويَدْعُو صاحبَهُ إلى التنطّعِ[1]، وسوءِ العِشْرَةِ، كان أحسنَ ذريعةٍ يتذرّعُ بها الإنسانُ إلى النبوغِ في هذه الحياةِ، وليس في الناس من هو أحوج إلى علو الهمة من طلب العلم؛ لأن حاجة الأمّةِ إلى نبوغِهِ أكثرُ من حاجَتِها إلى نبوغِ سواه من الصانِعين والمحترِفين، وهلِ الصانعُون والمحترفُون إلّا حَسَنةٌ من حسناتِه، وأثرٌ من آثارِه؟ بل هو البحرُ الزاخرُ الذي تَسْتَقِي منه الجداولُ والغدرانُ.

□ فيا طالبَ العلمِ، كُنْ عاليَ الهِمَّةِ، ولا يكُنْ نَظَرُكَ في تاريخِ عظماءِ الرجالِ نَظَرًا يَبْعَثُ في قَلبِك الرَّهْبَةَ والهَيْبَةَ،فتَتَضاءَلُ وتَتصاغَرُ كما يَفْعَلُ

---

(١) التنطّع: التكلُّف.

الجَبَانُ المستطارُ حينما يسمَعُ قصّةً من قِصَصِ الحروبِ، أو خرافةً من خرافاتِ الجانِ؛ حذارِ أن يملِكَ اليأسُ عليك قوَّتَكَ وشجاعَتك، فَتَسْتَسْلِمَ استسلامَ العاجزِ والضعيفِ وتقولُ: من لي بسلّم أصعَدُ فيها إلى السماءِ حتى أصلَ إلى قبّةِ الفلكِ، فأجالسَ فيها عظماءَ الرجالِ؟

□ يا طالب العلمِ، أنتَ لا تحتاجُ في بلُوغِكَ الغايةَ التي بلَغَها النابغُون من قبلِك إلى خُلُقٍ غيرِ خُلُقِكَ؛ وجوٍّ غيرِ جوِّك، وسماءٍ وأرضٍ غيرِ سمائكِ وأرضِك، وعقلٍ وأداةٍ غيرِ عقْلِكَ وأداتكِ؛ ولكنَّك في حاجةٍ إلى نفسٍ عاليةٍ كنفوسِهِمْ، وهِمَّةٍ عاليةٍ كهمَمِهِمْ، وأملٍ أوسعَ من رقعةِ الأرضِ، وأرحبَ من صدرِ الحليمِ، ولا يَقْعُدَن بك عن ذلك، ما يَهْمِسُ به حاسِدُوك في خلواتِهِمْ من وصْفِكَ بالوقاحةِ أو بالسماجَةِ؛ فنِعْمَ الخُلُقُ هي، إن كانتِ السبيلَ إلى بلوغِ الغايةِ، فامْضِ على وجهِك، ودَعْهُم في غِيِّهِمْ يَعْمَهُون.

□ جناحان عظيمان يطيرُ بهما المتعلِّم إلى السماء المجدِ والشَّرَف: عُلُوُّ الهِمّة والفهمُ في العلم»[١].

ﮪﮫﮬﮭ

ومِمَّا قيل في الهِمَّة والعزم والجد [٢] من كلام شعراء العرب:

□ قال حارثة بن بدر:

إذا الهم أمسى وهو داءٌ فأمضِهِ ... ولستَ بِمُمْضِيهِ وأنت مُعادِلُه [٣]

---

(١) «النظرات» (١/ ٢٠٠- ٢٠٢).

(٢) انظر «مجموعة المعاني» للأستاذ عبد السلام هارون (١/ ١٠١- ١١٢).

(٣) تعادله، من قولهم: أنا في عدال من هذا الأمر، أي شك أأمضي عليه أم أتركه. يقول: اجزم بطرد همك ولا تتردد في ذلك.

ولا تُنزِلنْ أمرَ الشديدةِ بامرئ — إذا رام أمرًا عوَّقته عواذلُه

□ وقال بلعآء بن يس الكناني [(١)]:

وإني لَأقرِي الهمَّ حين يُضيفني — زَماعا[(٢)] إذا ما الهمُّ أعيتْ مَصادرُه

وأبغي صوابَ الظن أعلمُ أنَّه — إذا طاش ظَنُّ المرء طاشت مَقادره

وقد يكره الإنسانُ ما فيه رُشده — تلقى على غير الصَّواب شراشِره[(٣)]

□ وقال ابن هرمة [(٤)]:

يَزُرنَ امرأ لا يمحَض القومُ أمرَه [(٥)] — ولا يَنتجِي[(٦)] الأدْنَيْنَ[(٧)] في ما يحاولُ

إذا ما أَبى شيئًا مضى كالذي أبى — وإن قال إني فاعلٌ فهو فاعلُ

□ وقال سعد بن ناشب المازني [(٨)]:

إذا همّ ألَقى بين عينيه عَزمَه — ونكَّب[(٩)] عن ذِكر العواقِب جانبا

---

(١) كان رأس بني كنانة في أكثر حروبهم، ومات قبل يوم الحريرة، وهو اليوم الخامس من أيام الفجار.

(٢) الزَّماع: المضي في الأمر.

(٣) يقال: ألقىٰ عليه شراشره، أي نفسه، حرصًا ومحبة.

(٤) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة.. آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم.

(٥) الأمر الممحوض: المهذَّب المخلَّص وفي «الديوان» (١٦٧) و«الأمالي»: «لا يصلح القوم أمره».

(٦) ينتجي: يُفضي إليهم بسرِّه.

(٧) الأدنيْن: الأقربين. وفي «تاريخ الطبري»: «لا يمحض القوم يسرَّه».

(٨) سعد بن ناشب المازني، من مازن بن عمرو بن تميم شاعر إسلامي في الدولة المروانية، وكان من شياطين العرب.

(٩) نكب عنها: عدل وتنحَّىٰ، أي لا يبالي بالعواقب.

ولم يستـشر في أمـره غـيرَ نفـسِه ولم يرض إلَّا قائمَ[١] السيف صاحبا

□ وقال مالك بن الرَّيب[٢] :

وما أنا بالنابي الحَفيظـةِ في الـوغَى ولا المتَّقي في الـسِّلْم جَـرَّ الجـرائمِ

ولا المتأرِّي[٣] في العواقب للـذي أهـمُّ بـه مـن فاتكـاتِ العـزائمِ

ولكنَّنـي مـاضي العزيمـة مُقْـدِمٌ على غَمَرات الحادث المتفـاقِم[٤]

قليـلُ اخـتلاجِ[٥] الـرَّأي في الجِـدّ جَمِيـعُ الفـؤاد عنـد وَقْـع العظـائِم

□ وقال بعض بني سعد، ويروي لضابئ البرجمي:

وما الفتكُ ما شاورتَ فيه ولا الذي يُخَـبرُ مَـنْ لاقيـتَ أنَّـك فاعلـه

وما الفتك إلَّا لامرئٍ ذي حفيظـة إذا همّ لم تُرعَد إليهم خـصائله[٦]

---

(١) قائم السيف: مقبضه.

(٢) مالك بن الريب بن حوط المازني من مازن تميم كان لِصًّا يقطع الطريق مع شظاظ الذي كان يقال فيه: «ألصُّ من شِظاظ» واستصحبه سعيد بن عثمان بن عفان والي خراسان بعد أن استتابه وأجرى عليه خمسمئة دينار في كل شهر فكان معه حتى قُتِل ومكث مالك بخراسان فمات هناك.

(٣) المتأرِّي: المتحبِّس المتلبِّث.

(٤) تفاقم الأمر: عظم أو لم يجر على استواء.

(٥) الاختلاج: الاضطراب. والفؤاد الجميع: الشديد ليس بمنتشر.

(٦) الخصائل: جمع خصيلة: كل لحمة على حيزها من لحم الفخذين والعضدَيْن. وفي «اللسان»: «إذا همَّ لم تُرْعدَ عليه خصائله.

□ ومثله لحارثة بن بدر:

وما الفَتكُ إلَّا لامرئٍ رابطِ الحشا ... إذا صال لم تُرعَد إليه خصائله

□ وقال شبيب بن البرصاء [١]:

ولا خَير في العِيدان إلَّا صِلابُها ... ولا ناهضاتِ [٢] الطَّير إلَّا صقورُها

□ وقال الرضيُّ أبو الحسن:

كيف يهاب الحِمام [٣] منصلتٌ [٤] ... مذ خاف غَدرَ الزمان ما أَمِنا

لم يَلْبسِ الثوبَ من توقُّعه ... للأمر إلَّا وظَنَّه الكفَنا

أعطشه الدَّهرُ مِنْ مطالبه ... فراحَ يستمطر القَنَا اللَّدِنا [٥]

□ وقال أبو تمَّام:

أمطرتهُمْ عزماتٍ لو رميتَ بها ... يومَ الكريهةِ [٦] رُكْن الدَّهر لانهَدَمَا

إذا همُ نكصوا كانت لهم عُقُلًا [٧] ... وإنْ هم جمَحوا كانتْ لهم لُجُما [٨]

---

(١) شبيب: شاعر فصيح من شعراء الدولة الأموية. والبرصاء أمه. وأبوه: يزيد بن حمزة.

(٢) الناهض: الفرخ الذي وفر جناحاه ونهض للطيران.

(٣) الحِمَام: الموت.

(٤) منصلت: منجرد ماضٍ كالسيف.

(٥) القنا: الرماح. واللَّدْن واللَّدِن: الليِّن.

(٦) الكريهة: النازلة والشدة في الحرب.

(٧) عُقْلا: جمع عقال، وأصله الحبل يُشدُّ به ذراع الدابة إلى وظيفها.

(٨) اللجم: جمع لجام، وهو ما يُجعل في فم الدابة من حبل أو عصا ويشد إلى القفا.

□ وقال الحطيئة:

إذا هــمَّ بالأعــداء لم يَـثْنِ هَمَّــهُ حَصانٌ عليهـا لؤلـؤٌ وشُـنوف (١)

□ وقال طَرَفة بن العَبْد (٢):

إذا ما أردت الأمرْ فَامِض لوجهـهِ وخَـلِّ الهُـوَيْنى جَانِبًـا متنائيًـا (٣)

ولا يَمنَعْـكَ الطَّـيرُ مِمَّــا أردتَــه فقد خُطَّ في الألواح ما كنتَ لاقيًا (٤)

□ وقال آخر:

وقَـلَّ مــن جَـدَّ في أمــر يطالبــه واستصحب الصبرَ إلَّا فاز بالظَّفَرِ (٥)

□ وقال جَعفر بن عُلْبَةَ الحارثيّ:

أرادوا ليَثْنــوني فقلــت تجنَّبــوا طريقي، فما لي حاجةٌ مِن ورائيا (٦)

□ وقال زِيادة بن زَيدِ العُذريّ:

إذا خفتَ شَكَّ الأمر فـارم بعزمـةٍ عَمايتَه يركبْ بكم العزمُ مَركَبـا (٧)

وإنْ وِجهةٌ سُدَّت عليك فُروجُهـا فإنَّــك لاقٍ لا محالــةَ مَــذْهَبا (٨)

□ وقال عبدُ الرَّحمنِ بن حسان:

---

(١) الحَصان: العفيفة. والشنوف: جمع شَنْف بالفتح، وهو القُرْط في أعلى الأذن.

(٢) جعله ابن سلام في الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية.

(٣) متنائيا: معناه ينأى ويبعد بعضه عن بعض.

(٤) الطير: يعني التشاؤم به. خط في الألواح: أي كُتب في اللوح المحفوظ.

(٥) يطالبه: يطلبه ويريده.

(٦) ليثنوني: أي ليصرفوني عما اعتزمت عليه.

(٧) عمايته: أي مجهولة الذي لم يتبين. وأصل العماية عماية الصبح، وهو ظلمته قبل أن يتبيّن.

(٨) فروجها: منافذها.

لـو كنـتُ خُـوّارَ القَنـاة مـوكَّلا ... إذَنْ تركـوني لا أُمِـرُّ ولا أُحـلِي [١]

ولكنَّنـي فـرعٌ سـقته أرومـةٌ ... كذاكَ الأَرُوم تُنبت الفـرعَ في الأصـل

صَليبُ مَحزِّ العـود يُسمَعُ صـوته ... يَصِلّ إذا ما صَـكّ في أقـدُح الخَـصْل

□ وقال الخِنَّوْت [٤]:

برأسي خطوبٌ لو عَلمـتَ كثيرة ... أصِبْتُ بها ظُلْمًا وأطلبُها وَحـدي [٥]

وإنّي امرؤٌ لا ينقُض العجـزُ مِـرَّتي ... إذا ما انطوى منِّي الفؤادُ على حِقدِ [٦]

□ وقال الرَّضي:

وركبٍ سرَوْا والليلُ مُلـقٍ رواقـه ... عـلى كـل مُغـبرّ المَطَـالع قـاتِم [٧]

حدَوْا عزَماتٍ ضاعت الأرض بينها ... فصار سَراهم في ظهور العزائِم [٨]

---

(١) خوّار القناة: ضعيفها. والقناة عند العرب: القامة. كناية عن ضعف النفس. موكلا: يكل أمره إلى غيره. وقد تكون: «مُواكِلا» وهو الذي يتكل على غيره. وواكلت الدابة: أساءت السير. ويقال: هو لا يُمِرّ ولا يُحلي: لا يضرّ ولا ينفع.

(٢) الأَرومة: واحدة الأَروم، وهي أصل الشجرة. كناية عن كرم الأصل.

(٣) يَصِل: يصوّت. وأقداح الخصل: قداح المخاطرة والرهان. يقال: خصلَه، إذا قَمَره وغلبه في المخاطرة.

(٤) الخِنَّوت: لقب توبة بن المضرس.

(٥) الخطوب هنا: الأمور والشؤون.

(٦) المِرّة: القوة والشدة.. ومِرة الحَبْل: طاقته وشدة فتله. ينقضها: يضعف قوى الفتل. عنى أنه لا يعوقه شيء عن الأخذ بحقه.

(٧) رواقه: جانبه: ورواقا الليل: مقدمه وجوانبه. ويُقال: ألقى أروقته، أي: ظلماته، وفي «الديوان»: «ملق جرانه»، والمراد: ظلمته أيضًا. وأصل الجران: مقدم عنق البعير.

(٨) ضاعت الأرض: قطعت بالسير الشديد. والسري: السير ليلاً.

تُـريهم نجـومُ اللَّيـل مـا يبتغونـه ... على عاتق الشِّعرى وهَامِ النَّعائِمِ [١]

وغطَّى على الأرض الدُّجى فَكأننا ... نفـتِّش عـن أعلامِهـا بالمَنَاسـمِ [٢]

□ وقال أبو فراس الحمداني:

تهـون علينـا في المعـالي نفوسـنا ... ومن طلب الحسناء لم يغلـه المهـرُ

□ وقال الرضي أيضًا:

ضَمومٌ على الهمِّ الذي باتَ ضَـيْفَه ... جَمُوعٌ على الأمر الذي كان أزمَعا [٣]

صَليبٌ على قَـرع الخُطـوبِ كـأنَّما ... يُرادِين طَـودًا مـن عَمايـة أفرَعـا [٤]

□ وقال محمَّد بن هانئ:

تـأتي لـه خلـفَ الخُطـوب عـزائمٌ ... تُذكَى لها خَلْفَ الصَّباح مَشاعِلُ [٥]

فكـأنَّهنَّ عـلى العُيـون غياهـبٌ ... وكأنَّهنّ عـلى النفـوس حَبائـلُ [٦]

---

(١) أي: يستضيؤون ويسترشدون بالنجوم. والنعائم: منزلة من منازل القمر، أربع منها في المجرّة وتسمىٰ الواردة، وأربعة خارج المجرّة وتسمىٰ الصادرة..

(٢) المناسم: جمع مَنسِم، وهو كالظفر في مقدم خف البعير، ولكل خف منسمان في مقدمه بهما يستبان أثر البعير الضال.

(٣) جموع: مجمع مصمم. وفي «الديوان» (١/ ٦٣٧): «جموح» بالحاء. يقال: جمح الفرس إذا أسرع ولم يردّ وجهه شيءٍ. والجموح من الرجال: الذي يركب هواه فلا يمكن ردُّه.

(٤) يرادين، الضمير للخطوب. والمراداة: المراماة. والمِرادة: الصخرة تردي بها. والطود: الجبل العظيم. وعماية: جبل معروف بالبحرين، وجبل بنجد في بلاد بني كعب. أفرع: عال مرتفع.

(٥) تذكىٰ: يلقي عليها ما يزيدها اشتعالاً.

(٦) الغياهب: الظلمات. أي: كأن عزماته تصيب أعداءه بما يطمس علىٰ أبصارهم، كأنها كذلك حبائل تصاد بها النفوس.

ومن شعر المتنبي في علو الهمّة:

□ قال:

ولم أرَ في عيـــوب النـــاس عيبًـــا ... كـــنقص القـــادرين عـــلى الـــتمام

□ وقال:

وإذا كانـــت النفـــوسُ كبـــارًا ... تعبـــت في مرادهـــا الأجـــسامُ

□ وقال:

ذَرِيني أنلْ مـا لا يُنـال مِـن العُـلَى ... فصَعْب العُلَىَ في الصعب والسهل في السهل

□ وقال:

تريـدين لقيـان المعـالي رخـصية ... ولا بُدَّ دون الشهد من إبـر النَّحْـل

□ وقال:

على قدْرِ أهل العزم تـأتي العـزائمُ ... وتـأتي عـلى قَـدْر الكـرام المكـارَمُ

وتعظم في عين الـصغير صـغارها ... وتصغر في عـين العظـيم العظـائِمُ

□ وقال:

غريبٌ عـن الخِـلَّان في كـل بلْـدةٍ ... إذا عظـم المطلـوب قـلّ المُـسَاعِدُ

□ وقال:

ولله سرٌّ في عُـــــلاك وإنـــــما ... كلام العِـدَى ضربٌ مـن الهـذيانِ

□ وقال:

لَحا الله ذي الـدنيا مناخًـا لراكـب ... فكُـلُّ بعيـد الهَـمِّ فيهـا معـذَّبُ

فهو معذّب بنفسه الطموحة التوّاقة؛ لأن بداخلها همة عارمة لا يردُّها شيءٌ.

□ وقال:

لا يــدرك المجــدَ إلا ســيدٌ فَطِــنٌ　　　لمــا يــشقُ عــلى الــسادات فَعَّــالُ

□ وقال في علو الهمة في الشجاعة:

كــأنهم يــردُون المــوت مِــن ظمــأٍ　　　وينــشقون مـــن البـــارود ريحانـــا

□ وقال في علو الهمة والابتعاد عن الكسل والخمول:

كثيرُ سـهادِ العـين مِـن غـير عِلَّـةٍ　　　يؤرِّقُـــه فـــيما يـــشرفه الفكـــرُ

□ وقال:

إذا غـــامرتَ في شرف مــــروم　　　فـــلا تقنـــعْ بـــما دون النُّجُـــوم

□ وقال:

وفي الجسم نفسٌ لا تـشيب بـشيبه　　　ولو أنّ مـا في الوجـه منـه حِـرابُ

□ وقال:

وأتعــبُ خلــق الله مَــن زاد همُّــه　　　وقصر عما تـشتهي الـنفسَ وجْـدُهُ

وفي الناس مَن يرضى بميسور عيشه　　　ومركوبه رجـلاهُ والثـوبُ جِلْـدُهُ

ولكِــنّ قلبًــا بــين جنبــيَّ قالــه　　　مَــدَيً ينتهــي بي في مُــرادٍ أحــدُّهُ

يرى جسمه يُكْسَى شُـفوفًا تَربُّـه　　　فيختــارُ أن يُكــسى دُروعــا تهــدُّهُ

□ وقال عن عالي الهمة:

إذا تغلغـل فِكْـر المـرءِ في طَـرَفٍ　　　مِـنْ مجـدِه غرقـتْ فيـه خـواطِرُهُ

□ وقال:

ذي المعــالي فَلْيَعْلُــوَن مــن تعــالَى　　　هكـــذا هكـــذا وإلّا فـــلا لا

شرف يــنطح النجــوم بِرَوْقَيْـــ　　　ـــه وعـــزٌّ يقلقـــل الأجبـــالا

□ وقال:

فَثِــبْ واثقًــا بــالله وثْبَــةَ ماجِــدٍ ... يرى الموتَ في الهيجا جنَـى النَّحْـلِ في

□ وقال:

ومَن يبغ ما أبغي من المجدِ والعُلى ... تَـساوى المحـايي عنـده والمَقَاتـلُ

□ وقال:

ليس التعَلُّـل بالآمـال مِـن أربـى ... ولا القناعة بـالإقلالِ مـن شـيمي

□ وقال:

رِدِي حياضَ الرَّدى يا نفس واتَّركي ... حياضَ خوفِ الردى للشَّاءِ والنَّعَم

□ وقال:

هو الجدُّ حتى تفضلُ العين أختَهـا ... وحتـى يـصيرَ اليـومُ لليـوم سـيِّدا

نحوَ المعالي:

□ مع الأستاذ محمد أحمد الراشد وله كلمات رقراقة نيِّرة:

كُنْ رابطَ الجأشِ وارفع راية الأمَلِ ... وَسِرْ إلى الله في جِـدٍّ بـلا هَـزلِ

وإن شَعَرْتَ بـنقص فيـكَ تَعْرفـهُ ... فغـذ روحـك بـالقرآن واكتمـل

وحارب النفس وامنعهـا غوايتهـا ... فالنَّفْس تهَوى الذي يدعو إلى الزَّلَل (١)

رقابٌ مُنَكَّسَة يرفضها طريق المعالي:

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾ [طه]. وقوله تعالى: أزواجًا منهم: أي أصنافًا من الكفرة والفسقة. «ولقد شدَّد المتقون في وجوب غض

---

(١) «ديوان الشعاع» (ص١٦٢).

البصر عن أبنية الظلمة وعُدد الفسقة، في ملابسهم ومراكبهم، حتى قال الحسن: لا تنظروا إلى دقدقة هماليج الفسقة، ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرقاب!!»[1].

□ ظاهرة واضحة في مواعظ الحياة، والتي لا يلحظها غير مسلم يصون نفسه، وهو تمييزنا لذل المعصية الثقيل على رقاب أهل الدنيا، فلقد صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنها لَمسحة تعلُو المترَفين واللاهين فيسفلون، إذْ طائعُ ربه العابد يسمو نحو المعالي إنما نريد أن نعيذك بالله من الغفلة والركون إلى زهرة الحياة الدنيا، ليس غير، ونحن الذين شجَّعناك على أن تصفق وتسيطر على حصة الإسلام في الأسواق والمزارع والمصانع، ولكن ليكون المال في يدك.. لا في قلبك، وعلى نية منافسة حصة الفسوق والعصيان.

وإنك لتتقلّب في البلاد العريضة، وتهاجر وتقيم وتسيح، وتتاجر، وتتصدَّى لأنواع من الخير تظنها، وتطلب التمكين، وترجو السَّطوَة والعزَّ، فأنت وما يوفقك الله إليه، لا نحسدك على فضل تناله، ولا ننهاك عن طلب ثروة وسعة، وإنما نسألك عن دينك وتوحيدك وتوكلك وإخباتك ونوايا المعروف، ونتشبَّه بحرص يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما «سأل البشير: كيف يوسف؟ قال: هو مَلِك مصر!

فقال: ما أصنعُ بالمُلْك؟ على أيِّ دينٍ تركته؟

قال: على دين الإسلام.

قال: الآن تمَّت النعمة»[2].

---

(١) «تفسير النسفي» (٢/ ٣٨٧).

(٢) «تفسير النسفي» (٢/ ١٢٨).

فإنما نريد أن تتم النِّعم على شباب يريد الإصلاح في محيطٍ قاسٍ فيه أنواع الشبهات والشهوات، لنقول -إذ يطمئن القلب- مثل قول يعقوب عليه السلام»(١).

نعوذُ بالله من سَهْو الخرَّاصين وتدسية الخائبين:

* في دعوة للعُلُوِّ خوف الهبوط نردد قول الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾[الذاريات]: «أي: ساهون عن أمر الآخرة، فهم في غمرة عنها، أي: فيما يغمر قلوبهم من حُبِّ الدنيا ومتاعها، ساهون عن أمر الآخرة وما خُلِقوا له، وهذا يشبه قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[الكهف](٢).

* وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

□ قال ابن القيم: «المعنى: قد أفلح من كبَّرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خَسِر من أخفاها وحقَّرها وصغَّرها بمعصية الله».

وأصل التدسية: الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩]، فالعاصي يدسُّ نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، ويتوارى مِن الخَلْق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أشرف شيءٍ وأكبره وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذلُّ شيءٍ وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل حصل لها هذا العزُّ والشرف

---

(١) «نحو المعالي» لمحمد أحمد الراشد (ص١٣- ١٥).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» لابن تيمية (١٠/ ٥٩٧).

والسموّ»[١].

◻ قال عبد الوهاب عزام:

تسفل النَّفْس بالصغائر حينًا وتضيق الحدود والآمادُ

فأحل القيود عنها فتسمو فإذا بيَ الآزال والآبادُ[٢]

وإنما يُفهم قوله بمعاني المجاز وأبعاده.

فهو -بتمكين الله تعالى- مسيطر على ساحة المكان والزمان، يتجوّل في أعماقهما، بما وفّقه الله إليه من فكِّ الأسر وحَلِّ القيود.

◻ قال الشيخ محمد أحمد الراشد: «إن المؤمن يليق به أن يثق بنفسه، وأنَّ يُحسن الظنَّ بها، وأنه مؤهَّل للأعمال الجليلة التي ندبه الله لها، من خلافة في الأرض وإصلاح بيِّن، وتقويم كل اعوجاج، وما الخوف إلَّا طبيعة رقابية تتولَّى الحفظ والتنقية من الشوائب؛ لأن المحيط فيه غبار، الشيطان يثيره؛ ولأن الطريق فيه عثار، إبليس يمد رجله بين أرجل الراكضين» اهـ[٣].

✍ **أخي:** ارصد نفسك للدندنة حول كل معنى تربوي يقود إلى تحليق الأرواح نحو المعالي»[٤].

فرسان المدينة الفاضلة يرثون عمارة الإيمان:

هم الزهاد المتجرّدون، والأقوياء المجاهدون، وعشاق الجنة المتهجدون،

---

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص٧٠).

(٢) «ديوان المثاني» (ص٩٥) لعبد الوهاب عزّام.

(٣) انظر «نحو المعالي» من (ص١٨ - ٢٢) باختصار.

(٤) المصدر السابق (ص١٣).

أصحاب العمارة الإيمانية باختلاف صورها وكمال همتهم الصافية ودرجاتهم العالية وأطوارهم النموذجية المثالية، ليس فوقهم إلَّا الملائكة، بما لهم من نقاء قلب، وطهارة جوارح، هم أهل المدينة الفاضلة، أقدامهم مُسْرِعة، وأشرعتهم في بحار الهمم العليّة مبسوطة، وأجنحة في سماوات العُلَا مرفرفة.

طريق العلو..وحصيرة المسجد عرش الداعية:

إن تلاوة القرآن في المساجد، والصلاة، والمكث في المساجد، وحلق الذكر، وتهجد الثلث الأخير، وزيارة القبور ومجالس العلم، وغدوة النهي عن المنكر إذا انطلق، وروحة أمر الأصحاب بالمعروف إذا آب.. طريق العلو.. ومَن لم تحُلِّق به روحه إذ هو على حصيرة المسجد البالية فلن يطير به بساط السندباد.

عالي الهمّة قدوة وأسوة:

«إن علاج الفتور لا يكون بتفريع، بل بانتصاب البعض قدوات، والقدوة إمامة بلا إمارة، وعنوان بلا تسمية، تنبثق تلقائيًا دونما تكلّف أو إشارة، وليس شرف مَن يُوَفَّق للتأسِّي بأقل من شرف مؤمن رائد استتمَّ له النُّبل فصار بموضع الأسوة»[1] .

العلم طريق للعلوّ:

«العلم يُجفل صاحبه، ويقلقه عن حالة السُّكون، ويحرِّكه نحو التمرُّد على الهواتف الصَّوارف وقواطع الطريق».

---

(١) «نحو المعالي» (ص٤٥).

شبابٌ تسامى للعُلا وكهولُ:

□ ولله درُّ القائل:

تُعيِّرُنا أنا قليلٌ عديدُنا فقلت لها: إنَّ الكرامَ قليل
ومَا قلَّ مَن كانت بقاياه مثلنا شبابٌ تسامَى للعُلا وكهولُ

حكمة ربانية جعلت نقباء الفضل في الناس الأقل، كما جعلت النسر والصقر بين الطَّيْر قلَّة، أو أشجار الثمر بين أنواع النبات[1].

لكن قوَّة التأثير إنما تأتي من وحدة المنهج العالي، ومن وحدة الأجيال حين تتوارث الخير، وذلك ما عبر عنه الشطر الأخير «شباب تسامى للعُلَا وكهولُ»، حتى التروِّي عند علاة الهمم إسراع على الطريق إلى القمة السامقة..

مِنّا الأُناة، وبعض القوم يحسبنا أَنَّا بطاءٌ، وفي إبطائنا سِرَعُ

□ قال التبريزي: «المعنى: نحن لا نعمل عملًا ولا نُمضي رأيًا إلَّا بعد التأنِّي، والتروِّي؛ فلذلك بعض القوم الذين لا تجربة لهم يظنُّون أنَّا بطاء، ولا يعلمن أَن إبطاءنا فيه سرعة»[2].

الرجال أساتذة الرجولة:

* قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦]. أولو بقية: أولو فضل.

---

(١) المصدر السابق (ص٤٧).

(٢) «شرح ديوان الحماسة» (ص٢٦٢).

وكان يقال: «في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا»[١].

كأن المسلم ينفرد في فهم مغزى التاريخ وحركته عبر مفاد آية سورة هود السابقة.

ومهنة الرجال أساتذة الرجولة وصعودهم نحو المعالي: أن يكونوا نُهاة في ثغِر النِّذارة وحركة التاريخ التي تُوجِّه تعاقب القرون: كامنة في تفرّد هذه الثُّلَّة المؤمنة فيما هي فيه من إنكار السُّوء، فيأتيها التمكين من الله تعالى..

بصرتُ بالراحة الكُبرى فلم أرها ... تُنال إلَّا على جسْرٍ من التَّعَبِ

وصية الصالحين:

□ الحازم من نظر في العواقب نظر المُراقب، وعرف الإضاعة، ولم يجعل الحُلم بضاعة فإنما العمل الحقيق: عمل يصعدك ويرقِّيك.

□ فالحذر الحذر أن يعجِّل للنفس سيرها، ويفارق القفصَ طيرُها، وهي بالعرض الفاني متشبِّطة، وبصحبته مغتبطة.

□ وإنك محتاجٌ إلى جذبة تُوقِد مصباح الهمة في ديجور هذه الغفلة المدلهمّة.

□ لا تكن مثل فلان دني الهمة، فإنما هو غريق، وتائهٌ لا يبدو له طريق.

□ ما الأموال إلَّا كالظلال، وكل ما أغفل القلوب عن ذكره تعالى فهو.. دنيا، وكل ما أوقف القلوب عن طلبه فهو.. دنيا.

□ وما النَّفْس إلَّا حيث يجعلها الفتى، فكن الحرّ وقُدْها بزِمام، فيا ربَّ

---

(١) «تفسير النسفي» (ص٢/ ٨٦).

نفس بالتذلّلُ عزَّت.

◻ قصِّر الأمل.. وبالغْ في العمل، حماك الله من الأوهام الطارئة، والعقول المفارقة.

◻ أنت العين.. نبيل القوم ومقدّمهم، وشريفهم بل أنت عين الأعيان بما رُزِقت من همّة عالية تحرصُ على الإصلاح، وتجُرُّ ويعيد ضَرْب المثال.

كِبَر الهمّة:

◻ قال الشيخ محمد الخضر شيخ الجامع الأزهر السابق: «جَرَت سُنَّة الله في خلقه، أن لا ينهض بأمر المقاصد الجليلة، ويرمى إلى الغايات البعيدة، التي يشدُّ بها نطاق السيادة الكبرى غير النفوس التي عظم حجمها، وكبرُت هممها، فلم تعلق إرادتها بسفاسف الآمال.

ولذلك ما بُعث عليه الصلاة والسلام لإسعاف الأمَّة بجميع وسائل الحياة الأدبية، أنشأ يؤسِّس مبادئ العزَّة والكرامة، ويعبِّر عن مكانتها الرفيعة باليمين والشمال، فاجتثَّ من الأنْفُس شجرة الذِّلَّة من جذورها، وأعتق رقابها من الاستكانة مخافة أن تهوي بها إلى درجات الضعة والدناءة، ولم يأل جُهدًا في إجراء دم الشهامة وكبر الهمّة في عروقها الميِّتة، حتى أخرجها في قالب الكمال، لا تتردد إلَّا على أبواب الفضائل، ولا تبسط ساعديْها إلَّا لمهمات الأمور. أليس من الإيماء إلى هذا الخُلق العظيم: النهيُ عن السؤال لمن وجد طريقًا عمليًّا للاكتساب؟

• في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها، فيكفُّ الله بها وجهه، خيرٌ له من أن يأتي رجلًا أعطاه الله من فضله، فيسأَله، أعطاه أو**

منعه».

□ ومن أحكام الشريعة: إباحة التيمُّم للمكلَّف، وعدم إلزامه بقبول هبه ثمن الماء للوضوء؛ لما في ذلك من المِنَّة التي تُنقِص حظًّا وافرًا من أظراف الهمّة الشامخة، ومنها عدم إلزامه باستهابة ثوب يستر به عورته في الصلاة، وأُبيح له أن يصلِّي عاريًّا، صيانة لضياء وجهه من الانكساف بسواد المطالب.

وليحذر الذين يحاولون الوصول إلى الخُلُق الأسمى، أن يهرعوا إليه من طريق يدع التواضعَ دُبُر آذانهم، كما بدؤوا. ليس من كبر الهَمَّة، الترفُّع عن الرجل يبسط لك وجهًا رُحْبًا، ويمنحك لسانًا رطْبًا، وتشهد لك ألمعيتك الوقَّادة بمطابقة ظاهره لما يكنّه ضميره، بل ذلك نفور من النفس، وجموح إلى جهة العلوِّ بغير انتظام، وهو ما نسمِّيه كِبْرًا.

ماذا يردع النفوس عن أن تُرى حيثما نهى الله، ويغلق في وجوهها أبواب الفسوق والملاهي؟ كِبَرُ الهمّة. ماذا يقبض من الأيدي ويسدُّ اللُّهَى عن ابتلاع ما يُدلي به الظالمون ليأكلوا فريقًا من أموال الناس؟ كبر الهمة.

ماذا يوحي إلى الرجل أن يقيم لسائر تقلُّباته وزْنًا بالقسْط، حتى إذا جسَّتها يد الناقد الحكيم لم تجد في حركاتها طيْشًا عن الأغراض التي ترمي إليها ذوو العقول النَّيِّرة؟ كِبَر الهمّة.

□ كبر الهمّة يعقد الألسنة عن الانطلاق في مجاري التملّق والمداهنة، ويصفِّدُ الأقدام عن غشيان المنازل التي لا تطؤ فيها على بساط الاحترام والحفاوة، كبر الهمّة يصيِّر العالم الأمين عُودًا مرًّا ومكسرًا صلبًا، يقف للمبتدعين المرجفين موقف الشَّجَي بين الحَلْق والوريد، ويصارعهم بقول

الحق الذي تشتد عُراه على أكنَّتهم إبرامًا.

□ كبر الهمَّة يستفزّ الموسر الكريم إلى أن يقول بمال الله الذي آتاه: هكذا وهكذا، متحرِّيًا به مصارفَ المبرَّات التي تقرّ به إلى الله زُلفى.

□ يقف أحد أمام بعض الكبراء، فيسترسل في مخاطبته بثبات جأش وسكون في الأعضاء ومهل في القول، ويعقبه آخر ليقوم مقامه فيرجُف فؤاده وترتعد فرائصه ويتعثر لسانه في أذيال الفهاهة، فهل يختلج في ضمير ذي عقل رشيد، أن الأوّل اتسم بالقحة المذمومة، والآخر طبِعُ على الحياء المحمود، معاذ الله! إنما هو كبَر الهمَّة وضعفها.

□ كِبَرُ الهمّة وضعفُها يمثِّلان لك الإنسانية بالمسلك الذي ينظم خَرَزًا كثيرًا تباينت معادنها شرفًا وحِطَّة، واختلفت مناظرها سماجة وجمالًا:

فمن الناس مَن تسمو بهم نفوسهم إلى الوقوف على أسرار الهداية، فيتقلّبون في أبوابها، ويتمسَّكون بأسبابها إلى أن تعرج بهم إلى الأفق الأعلى، فيَحِلُّون من العِلْم بطرقها محل القُطب من الرَّحى، وهذا الفريق هو الذي تستضيء الأمة بأنوار عقولهم، وتتوكَّأ على كواهلهم القوية، ولا ينوء بهم عبؤها الرَّزين، فيخطون بها سراعًا إلى مجادة شامخة الذُّرَى، ويُوقدون في كل شعبة منها سراجًا منيرًا.

□ ومنهم من تتضاءل إلى هممهم حتى يتمكَّن الذبول والخمول من نواصيهم، فيزلقان بهم إلى الحضيض الأسفل من الحِطَّة والرَّذالة، وتمحى من إحساساتهم آيات الشعور ورسوم العواطف التي يكون بها الإنسان رجُلًا حقيقيًّا، فينشرون الخبائث نشر الريق الأول للأفعال المحمودة، وتقهقر الأمة وشقاؤها بمقدار ما يتناسل فيها من مثل هؤلاء الأرذلين.

▫ تجد الذين تربَّوا على مبدأ الإذلال والإهانة، يحبُّون أن تشيع فاحشة الذِّلَّة في إخوانهم الذين آمنوا، فيتغالون في إطراء كلِّ من تزمَّل بثياب الهوان وخفض لهم جناح المسكنة، وإنها لإحدى العلل التي تخرَّت منها عظامنا من قبل أن يدركنا الموت الذي يجعلنا من أصحاب القبور.

أمَّا الحُرُّ الذي رُبِّي في مهاد العزّ، وفُطِر على كرامة النفس، فإنه لا يرفع إلَّا من شأن شريف الهمة، الناسج على مثال العِزَّة التي هي من شعائر الإيمان، وإذا استبنّا أن كِبَر الهِمَّة سجيةٌ من سجايا الدين، تصدر عنها الأعمال العظيمة، وتضمُّ تحت جناحيْها فضائل شتَّى، فلِمَ لا نعقل عليها نفوس أبنائنا، ونرشحهم بلبانها في أدوار تربتهم الأولى؟ ليستشعروا بالآداب المضيئة، ويتجلببوا بالقوانين العادلة، ولنا حياة طيبة في العاجل، وعطاء غير مجذوذ في الآجل»[1].

«الإشراقات» و«السُّمُوّ»[2]:

▫ قال الشيخ عائض القرني -حفظه الله-:

- الناجحُ لا يعيش على هامش الأحداث، ولا يكون صفرًا بلا قيمة، ولا زيادةً في حاشية.
- مَنْ كانت همتُه في شهواته وطلب ملذاته، كثُر سقَطُه، وبان خللُه، وظهر عيبُه وعَوَاره.
- أمسِ مات، واليومُ في السياق، وغدًا لم يولد، فاغتنم لحظك

---

(١) «حياة الأمة» لمحمد الخضر حسين (ص٢٩- ٣٤)- دار ابن حزم.

(٢) «إشراقات» و«السمو» كتابات للشيخ عائض القرني أخذنا منهما هذه الجمل والكلمات الطيبة.

الراهنة، فإنها غنيمةٌ باردة.

- المؤمنُ لا يخلو من عقل يفكِّر، ونظر يعبِّر، ولسانٍ يَذكر، وقلبٍ يشكر، وجدٍّ على العمل يصبر.
- لا تقف، فإن الملائكةَ تكتب، والعمرَ ينصرم، والموتَ قادم، وكل نَفَسٍ يخرج لن يعود.
- مَنْ زرعَ «سوفَ» أنبتتْ له «لعل»، وأطلعت «بعسى» وأثمرت «بليت» لها طعمُ الندامة ومذاق الحسرة.
- إذا أصبحت فلا تنتظرِ المساء، وبادِرِ الفرصة، واحذَرِ البغتة، وإياك والتأجيلَ والتردد، وإذا عزمتَ فتوكل على الله.
- البِدار البدار، قبل تقضِّي الأعمار وكتابةِ الآثار، فلا بقاءَ مع الليل والنهار.
- أعوذُ بالله من خسَّة الهمم، وتفاهة العزائم، وسُخف المقاصد، وثَخانة الطبع، وبلادة النفوس.
- بحث عليٌّ عن الشهادة في بدر، فقالوا: في أُحد، فهبَّ إلى هناك، فقال: ربما كانت في الخندق، فسعى إليها، قالوا: التمسها في خيبر، فلما أتاها، قالوا: تأخَّر الموعد. قال: ما أحسن القتل في المسجد.
- لابد للناجح من أن يكون قويَّ الملاحظة، دائمَ التركيز، حافظًا للوقت، مديمًا للتدبر، طموحًا إلى المعالي.

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذللت طالبًا، فعززت مطلوبًا».

□ وقال رضي الله عنه: «تفقهوا قبل أن تُسوَّدوا».

□ وقال مجاهد: «لا يطلب العلمَ مستحٍ ولا مستكبر».

□ مثبِّطاتُ النجاح: هوًى متبع، ونفسٌ أمَّارة، ودنيا مؤثَرة، وهمةٌ باردة، وطولُ أمل مع تسويف.

□ الناجحُ يأنف من الرزايا، ولا يتحملُ المنن، ووقتُ الراحة له عمل، ووقتُ العمل راحة.

□ سُجن السرخسي فألف المبسوط في ثلاثين مجلدًا، وأُقعد ابنُ الأثير فصنَّف «جامع الأصول» و«النهاية» ثلاثين مجلدًا، وسُجن ابن تيمية فأخرج الفتاوى ثلاثين مجلدًا.

□ كان ابنُ الجوزي يكتب خواطرَه، وكان كِتابُ الفتح بن خاقان في جيبه ليقرأ كل وقت، وكان الخطيبُ البغدادي يُطالع وهو يمشي.

□ كان أبو منصورالثعالبي يَخيطُ جلود الثعالب، فترقَّت به همتُه إلى أن صار أديبَ الدنيا، وكان الفرَّاء يشتغل بالفِراء، ثم صار نابغةَ النحو، وابنُ الزيَّات كان يبيعُ الزيت، ثم تولَّى الوزارة..

همةٌ تنطحُ الثريا وعزمٌ ... نبويٌّ يزعزع الأجبالا

لولا لطائفُ صنع الله ما نبتت ... تلك المكارمُ في لحم ولا عصب

لأستسهلن الصعبَ أو أُدرِكُ المنى ... فما انقادت الآمالُ إلَّا لصابر [1]

• وكان ﷺ يقول: **«اللهمَّ إني أعوذ بك من الهمِّ والحزَن، وأعوذ بك من العجز والكسل،وأعوذُ بك من الجبن والبخل، وأعوذُ بك من غلبة الدَّيْن وقهْر الرجال»**[2].

(١) انظر «إشراقات» (ص١٦٢ - ١٦٣).

(٢) «منظومة الناجحين» لعائض القرني من كتابه «إشراقات» (ص١٩٠ - ٢١٣).

همَّةٌ تنطح الثريَّا:

□ إذا أردتَ البراعة في أعلم علم أو عمل أو موهبة، فاغمس نفسَك فيه، وانصهِر في معاناته، واحترق بحُبِّه والشغف به إلى درجةِ العشق، وللناس فيما يعشقون مذاهب، وكما قال الشاعر:

وإنما رجلُ الدنيا وواحدُها ... مَن لا يُعوِّلُ في الدنيا على رجل

□ فلا تظنَّ أن النجاح سوف يقدِّمُ لك هبةً على طبقٍ من ذهب، وإن أقبحَ نصر هو ما كان عن هبة:

وأقبحُ النصر نصرُ الأغبياء بلا ... فهمٍ سوى فهم كم باعوا وكم كسبوا

□ لكن النجاحَ الغالي هو ما حَصل بجَهد وعرقٍ ومشقة ودموع ودماءٍ وسهر وتعب ونصب وتضحيةٍ وفداء، وكما قال أبو الطيب:

لولا المشقةُ ساد الناسُ كلُّهم ... الجودُ يُفقِرُ والإقدامُ قتَّال

لعُلاة الهمم:

هذه قصيدةُ كلِّ شهمٍ ناجح ... ذي همةٍ كالكوكب النُّوراني

لأولي العزائم صُغتُها وحبكتُها ... تُهدَى لأهل الفضل من إخواني

يا مَن أراد المجدَ من أطرافه ... وسعى إلى الفردوس والرضوانِ

اسمعْ هُدِيتَ نصائحي واعمل بها ... واحرصْ عليها غايةَ الإمكانِ

اسمع للفظةِ سابقواْ أو سارعواْ ... جاءت بنصِّ الوحي في القرآنِ

ويقول أحمد: بادِروا بل فاغتنمْ ... خمسًا رواهُ أحمد الشيباني

والمؤمنُ الشهم القويُّ أحبُّ من ... عبدٍ ضعيفٍ خائرِ الأركانِ

احرِصْ على النفع العظيمِ أتى به ... ابنُ الحسين العالم الرَّباني

وتعـوَّذ المختـارُ مـن كـسلٍ ومـن ... عجـــز رواه عنـــدنا الـــشيخانِ

هـــذا رســـولُ الله قـــام لربـــه ... فتفطَّـــرت لقيامـــه القـــدمانِ

وهـو الـذي ضـحَّى بكـل حياتـه ... مـن أجـل ديـنِ الواحـدِ الـديانِ

بأبي وأمي خيرُ مَـن وَطِـئ الثـرى ... وتهلَّلـــت لقدومـــه الـــثقلانِ

أثـرُ الحـصير بجنبـه وقميـصُه ... صـوفٌ وتحـت حزامِـه حجـرانِ

شـتمُوه بـل أدمَـوه وهـو مـصابرٌ ... في همـــةٍ مـــا كـــان بـــالمتوانِ

وضعوا السَّلا والشوكَ فوق جبينه ... بـل مـن أذاهـم ضـاق بالأوطـانِ

وتـــراه في صـــبر وعـــزم راســـخ ... أقـوى عـلى الأبـصار مـن ثَهْـلانِ

حتـى حبـاهُ اللهُ أعظـمَ نـصرِه ... فـاق الخليقـةَ إنـسَهم والجـانِ

واذكـرْ أبـا بكـر وحـسنَ جهـادِه ... وثباتَـــه في الـــسر والإعـــلانِ

يُـدعى لأبـواب الجنـان جميعهـا ... مـن كثـرةِ الأفـضال والإحـسانِ

في الغـار صـاحبُهُ وفـازَ بهجـرةٍ ... حتـى أتـى في الـوحي ذِكـرُ الثـاني

وانظر إلى الفاروق واعرفْ قـدره ... في قـــوةِ الإخـــلاص والإيـــمانِ

ورسـوخِه في العلـم بعـد جهـاده ... في كـل موقعـةٍ مـع العـدناني

وعزوفُـه عـن كـل مُغريـةٍ ولـو ... جـاءت إليـه بزينـةِ الألـوانِ

وبكائـــه حتـــى تبلَّـــل خـــدُّه ... وصـــمودُه في حَومـــةِ الميـــدانِ

والثالـــثُ الـــبرُّ الرشـــيدُ تحيتـــي ... تـسعى بـما يَـشفِي إلى عـثمانِ

هو منفـقُ الأمـوال سـاعةَ عـسرةٍ ... متهجـــدًا في الليـــل بـــالقرآنِ

ولبئـر رُومـــةَ قـصةٌ محفوظـةٌ ... ولـــه ببنتَـــيْ أحمـــد نـــورانِ

واذكـر أبـا حـسن وبجِّـل قـدرَه خـيرُ الـشيوخ وقـدوةُ الـشبانِ
وهـو الـذي ذبـح الطغـاةَ بـسيفه في بـدر والأحـزاب يـوم الـشانِ
إذ بيتُـه كـوخٌ ومَفرشُـه الحـصى مركوبُـه في عمـره نعـلانِ
وأُبيٌّ في حفـظِ المثـاني آيـةٌ ومعـاذٌ ذو عـزم بغـيرِ تـوانِ
وأبو هريـرة جدَّ في طلـب العلى والجـوعُ يـصرعُه عـلى الجـدرانِ
في الحفـظ أصـبح آيـةً معلومـة لا تعتريـه بـوادرُ النـسيانِ
أمـا ابـنُ عبـاسٍ فـأخبر أنـه بلـغ المـدَى في الـبر والإمعـانِ
بل كان ينتظرُ الصحابةَ في الـضحى والـشمسُ تـصهرُه بحـرٍّ دانِ
من أجـل نيـل العلـم حتـى حـازه لـسفينةِ الآثـار كالربَّـانِ
حـي العبادلـةَ الكـرامَ وجهـدَهم في ضـبط آثـارٍ وفهـم قُـرانِ
للعلـم سـافر جـابرٌ مـن طيبـة شـهرًا لمـصرَ بهمـةِ الـشجعانِ
وابـنُ المـسيب للحـديث محـصلٌ يبقـى ثلاثًـا لـيس بالوسـنانِ
ولمالـك صـبرُ الرجـال لنيلـه أعـلى المراتـب عنـد أهـل الـشانِ
ومشى ابـنُ حنبـل جامعًـا لحديثـه حتـى أتـى لإمامهـا الـصنعاني
جـذ الحـصار بـأجرةٍ وتمزقـت بالمـشي نعـلُ الماجـد الـشيباني
وطـوى الإمـامُ الـشافعي منـازلًا من أجـل بعـضِ مـسائل الـنعمانِ
وتـألَّق الثـوريُّ في زهـد وفي ورعٍ وفي علـمٍ وفي عرفـانِ
والأصمعيُّ طـوى القِفـار جميعهـا لمـراد آداب وحـسنِ بيـانِ
وأقـام دهـرًا سـيبويه منقحًـا لعلومـه في الحـضر والبـدوانِ

حتـى رَوى ذاك الكتـاب وإنـه … أصلُ الأصول لنحو خير لسانِ

بـرع الكسائي باجتهـادٍ دائـم … هـو واحـدُ القـراءِ للفرقـانِ

وتفـرَّد الزهـري بالـسنن التـي … سارت مسير الشمس في البلـدانِ

وابـنُ المعـين إمـامُ كـل معـدِّل … عَلَـمُ الـرواةِ ومـا لـه مـن ثـانِ

أهـدى الخليـلُ الـنجمَ نـومَ عيونـه … والعـين سـفر ظـاهرُ البرهـانِ

وأقام من علم العروض عجائبًا … مـا كـان في خلَـدٍ ولا حـسبانِ

وروى ابنُ حبـان حـديث شـيوخه … ألفـين مـن شـيخ ومـن شـبانِ

همـمٌ لـو أن الـدهر يحمـل بعضَها … لوجدتـه بـالعزم في رَجَفـانِ

هـذا ابـنُ عبـد الـبر في «تمهيـده» … أفنـى ثلاثينًـا مـن الأزمـانِ

وكـذا ابـنُ حـزم ألمعـيٌّ زمانـه … قـد حـل في العليـاء أيَّ مكـانِ

والظـاهريُّ هـو النهايـةُ في العـلا … بـل قـدوةٌ لنوابـغ الأزمـانِ

أمـا ابـن تيميـةٍ فـأعظمُ قـصة … في الجمـع والتحقيـق والإتقـانِ

أنفاسـه في العلـم حتـى حـدثوا … عـن عزمِـه قـاصي المَلا والـداني

في اليوم يكتبُ عشر كراسٍ كـذا … تعليمـه في همـةٍ وتفـانِ

ولـه المواقـفُ في الجهـاد فسلْ بها … أهـلَ النقـول وحـافظي البلـدانِ

هـذا البخـاري أنفـق الأوقـاتَ في … جمـع الحـديث وسُـنةِ العـدناني

ولـربما تـرك الفـراشَ بليلـةٍ … متـذكرًا مـا غـاب بالنـسيانِ

قلبي على أهـل الحـديث وحـزبهم … هـم صـفوةُ الأخيـار كـل زمـانِ

كـم فـيهمُ مـن بـاذلٍ لرقـاده … من أجل قولِ رسولِ ذي الفرقـانِ

ومُشتَّتُ العزماتِ لا يلوي إلى أهل ولا صحب ولا جيرانِ

أَلِفَ النَّوى حتى كأن رحيلَه للبَين رحلتُه إلى الأوطانِ

يا دمعُ أسعِفْني على ذكراهمُ واهجُر «قفا نبكي» لكل جبانِ

ذرعوا البلادَ وخلَّفوا أوطانهم قطعوا القفارَ بصُحبة السرحانِ

جاءوا فما شبعوا وكلٌّ مرادهم عن سعدٍ عن عمار عن سلمانِ

واذكر أبا إسحاق من شيراز في فقهٍ وتأصيل وحسن بيانِ

مئةً من المرات كرَّر درسه من قبلِ شرح فيه للإخوانِ

ويكرِّرُ التنظير ألفًا صابرًا مع أنه في الزهد شيءٍ ثانِ

ومحمدُ بن جرير في تاريخه أملاه من ذهنٍ بلا نسيانِ

تفسيره من حفظه فأعجبْ له يا همةً تسمو على كيوانِ

واعرِفْ جلال القدر لابن خزيمة صافي القريحةِ فائقِ الأقرانِ

وأبو الفداء ابن العقيلي الحنبلي حَفَّاظُ أنفاس وربُّ معانِ

وله الفنونُ يكون ألفَ مجلدٍ من غير ما أملاه من الديوانِ

بل كان أكلُ الكعك دون الخبز من عاداته حفظًا لذي الأزمانِ

وانظر إلى المُزَني كرر دهره سِفرَ الرسالة نسخة الرباني

خمسُ مئاتٌ وهو فيها دائب من غير ما ملل ولا نكرانِ

أما ابنُ جوزيٍّ الجليل فإنه قد صاغ ألفَ مؤلَّفٍ ببنانِ

جمع العلوم وجد في تحصيلها حتى دعوه بواعظ البلدانِ

لا تنسَ حافظ عصره في مصره ذا الفتح والتهذيبِ والميزانِ

شرح البخاري خيرَ شرحٍ كامل ... لا هجرةَ من بعد فتح ثانِ
سلِّم على الذهبي وانظر جدَّه ... إذ بزَّ حفظًا سائر الأقرانِ
وله من النبلاء تاريخٌ له ... وتذكر الحفَّاظ من أزمانِ
هذا النواويْ مات قبل مشيبه ... من بعد تحقيقٍ مع الإتقانِ
هجر الكرى للعلم وهو مثابرٌ ... حتى الزواجَ رماه بالهجرانِ
فأجاد في تأليفه حتى غدا ... شمسَ العلوم وقصةَ الركبانِ
هذا السيوطي فاق في تصنيفه ... حتى لقد قالوا له مئتانِ
وعلى ابن خلدونٍ تحيةُ شاعر ... يا عبقريَّ الدهر نعم البانِ
لما نفَوه أتى بتاريخ له ... ذكراه من صنعا إلى تطوانِ
والقيم الجوزي وابنُ دقيقهم ... وابنُ الوزير وبعده الصنعاني
والعالِمُ النحريرُ صاحب همة ... وقَّادةٍ أعني به الشوكاني
الكل في جلَدٍ على تحصيله ... متدرعًا بالصبر والسلوانِ
وأراك في نوم عميقٍ لاهيا ... يا خيبةً للفاشل الكسلانِ
قضَّيت عمرك في اللذائذ سادرًا ... يُشجيك يا حيرانُ صوت أغانِ
فاطرح أماني اللهو واصعَدْ واثبًا ... للمجد واترك صُحبةَ الوهانِ
شمِّر وواصل للمعالي دائبًا ... واهجر فُديتَ وساوسَ الشيطانِ
واحفظ زمانَك واحترس من فَوته ... واذكر إذا ما صرتَ في الأكفانِ
وانظر إلى القُمريِّ أصبح غاديًا ... في نَيْلِ رزقٍ ليس بالمُتَوانِ
والنملُ ما عرف النكوص ولم يزل ... متوثبًا في الصخر والصُّوانِ

والنحلُ مصَّ رحيقه من زهرة والبازُ خلف الصيد في طيرانِ
والسهمُ لولا وثبُه من قوسه لم يلْقَ صيدًا وهو في القضبانِ
والسيلُ لولا زحفُه بتدفق ما كان يُدعى هادم الجدرانِ
والليث لما هاج عفَّر بالردى ظبيًا وأهدى الموت للثيرانِ
والذئبُ لما هاج في أوطانه حاز الكباشَ وفاز بالحُمْلانِ
والشمسُ لو بقيت لمُلَّ مقامها والماءُ إن يركد فغيرُ مصانِ
والريحُ لو سكنت لما أهدت لنا أرَجَ الزهور ونفحةَ الريحانِ
والبدرُ لو لزم المقامَ ببرجه ما كان حاز المدحَ من إنسانِ
حتى الذبابُ له طنينٌ زائد كزئير ليثٍ فاتكٍ غضبانِ
لولا اشتعالُ النار فيها جاورت لم تَسْمُ عن تُربٍ وعن دخَّانِ
والعُودُ لو لزم المقامَ بأرضه حطبٌ يُحرَّقُ في لظى النيرانِ
دُرُّ البحور على النحور لأنه يسعى إلى الغواصِّ بالأحضانِ
وجواهرُ التاج المرصَّعِ لم يكن لولا الفؤوسُ سوى حصى المرانِ
فاكتب لنفسك أنت تاريخًا ولا تذكر لنا الأجدادَ من أزمانِ
فالورد من بصل وزهر الروض مِن شوك وطيب المسك من غزلانِ
وبلال عبدٌ وهو فينا سيدٌ وانظر إلى عمارٍ أو سلمانِ
وعطاءُ مولًى والصقليُّ الذي عَمَرَ الديارَ بعد نسل قيانِ
ما ضرَّهم إن فاتهم نسبُ العلا بنفوسهم فاقوا بني الإنسانِ
كم فاشلٍ في عمره من أسرةٍ مرموقةٍ في المجد والسلطانِ

لم يُغنِه نسبٌ ولو آباؤه — من آل شروان وعبدِ مدانِ
واذكر أبا لهب أليس جدوده — من آل هاشم درة الأزمانِ
لكنَّ نفس النذلِ لم تصعدْ به — كبلالٍ في فضل وفي إيمانِ
لا تأنف العملَ المباح فإنه — شرفُ الحياة ومفخَرُ الشبانِ
يُغنيك عن فَسْلٍ بَخِيْلٍ فاجر — ويكفُّ وجهَك عن رفيق هوانِ
حَمْلُ الصخورِ أخفُّ من حمل الأذى — مِن مانع لعطائهِ منَّانِ
قم فاطلب الأرزاقَ من أبوابها — لو أنها في الصين واليابانِ
بكِّرْ لكسب القوت واحرصْ أن تكن — ذا نيةٍ لتثاب من ديانِ
ودعِ التكبُّرَ فالحلال عبادة — لو كنتَ تطلي الإبل بالقطرانِ
أو كنت تبني حائطًا وتجذُّ من — نخل وتسقي الزهر في البستانِ
يكفيك في شرفِ المقام بمهنة — الأنبياءِ رعوا قطيعَ الضانِ
داودُ حدادٌ ويوسفُ تاجرٌ — إدريس خاط غلائل القمصانِ
والخِضْرُ طاف الأرض يعبدُ ربَّه — وانظر مزيدَ الفضل من لقمانِ
أو ما ترى الفِراء وهو مبجَّلٌ — كانت صناعتُه جلودَ الضانِ
وانظر إلى الزجَّاجِ وهو إمامنا — في النحو كان مزينَ الألوانِ
وكذا ابن زيات الوزيرُ محمدٌ — قد باع زيتَ الناس في بغدانِ
وأبو حنيفة كان بزازًا وذا — كَ ابنُ المبارك تاجر الرضوانِ
وأعوذ بالله الكريم إلهنا — من عاجز في الناس أو كسلانِ
أو باطل أو عاطل أو فارغ — رأسُ الأماني مالُ كلِ جبانِ

جلسوا مع الأشرار في أوهامهم فبُلوا بكل وساوس الشيطانِ
وبني قومي في سباتِ منامهم يا حيرةً للخامل الحيرانِ
خفَّ الحديثُ لهم فأصبح همُّهم في سهرةٍ ولذائذٍ وأمانِ
واطلب بجدِّك كلَّ علم نافع واحرص عليه غايةَ الإمكانِ
قيِّدْ وذاكر واستفد واكتب ولا تكسَلْ عن التكرار كل أوانِ
لو كنت تعلمُ ما النتائج لم تنم إلَّا كنوم الذئبِ بين الضانِ
أتقِن إذا ما رمتَ شغلًا إنه لا خيرَ في عمل بلا إتقانِ
لا تتركنْ أمرًا يحل بيومه لغد فإن غدًا لشغل ثانِ
إن الأهمَّ على المهم مقدَّمٌ راعِ التدرجَ عند أهل الشانِ
وعليك بالترتيب واحرصْ أن تُرى وسطًا بلا فوتٍ ولا نقصانِ
في هيئةٍ مقبولة ورزانة مع خشيةٍ في السر والإعلانِ
عشْ في حدود اليوم واترك ما مضى واهجر غدًا فاليوم ضيفٌ دانِ
واحذر فراغَك فهو لصٌّ جاثم يدعوك للإهمال والعصيانِ
إن الفراغ خديعةٌ لعقولنا ومحطةٌ للهم والأحزانِ
واقصِدْ إلى عمل تجيدُ أداءَه حتى تكونَ لحُسنِه متفانِ
عليك بالتنويع في الأعمال والأ قوالِ والأوضاع والأوزانِ
فالقلبُ ذو ملل وخيرٌ أن ترى متنقلًا بالجدِّ في ألوانِ
وإذا النجومُ تسابقت وتنزَّلت كلٌّ إليك من المجرَّة دانِ
فاختر أشدَّ نجومها نورًا ولا تختار إلَّا منزل الكيواني

فالليثُ لا يأكل فريسةَ غيره ... لو بات رهنَ الجوع في قضبانِ
والبرقُ لما أن علا في جوِّه ... لمحوه بالأبصار في رجفانِ
والغيمُ لما اختار عز محلِّه ... فاق الجبالَ كهيئة التيجانِ
ركب الملوكُ الخيلَ لما هملجت ... أما الحمير فمركبُ الكسلانِ
وانظر إلى الذهب المرصع صابرًا ... لم ينصهر بحرارةِ النيرانِ
قد صار أغلى من رموش عيوننا ... فاق الحديدَ التافه الأثمانِ
قالوا لطير الحشِّ: ما لك ساقطٌ ... قال: الهوان على أبي جعلانِ
ولثعلب قالوا له: أَوَمَا ترى ... ليثَ العرين يسودُ في الحيوانِ
فأجاب ليثُ الغاب عِيسٌ أكله ... وأنا رفيقُ الهر والفئرانِ
والسيف لما صار أمضى مضربًا ... حفظوه في قرب وفي غمدانِ
أتريد سُكنى جنةٍ وتنام عن ... داعي الصلاةِ أذاك في إمكانِ
أتريدُ أن تحظى بمنزلِ ماجد ... وتظلَّ رهنَ عزائم الصبيانِ
أتريد رُفقةَ أحمد وصِحابه ... وأراك ربَّ بلادةٍ وأمانِ
كلا لقد كَذَبَتْك نفسك إنما ... هذي الأماني خدعةُ الشيطانِ
المجدُ أقسم لا أُساق لفاشل ... لو أنه كسرى أنو شروانِ
أما العلا فأبت محبةُ خاملٍ ... لو كان نسلَ اسكندر اليوناني
وأبى النجاحُ دخولَ كل مقصر ... لو كان في الأجداد كالنعمانِ
مَن غاص في قاع البحر أتى لنا ... بالماس والياقوت والمرجانِ
وأخو الخمولِ مخدَّرٌ في بيته ... في منزل الأوباش والصبيانِ

أرني سـواعدَك القويـة انتـشي ... مـن حـسنها فـصريفها قـواني

فلرؤيـة العلـماء والعـمال والـ ... ـصناع في عـزم وفي إتقـانِ

أشـهى إليَّ مـن الفنـون جميعهـا ... أو صـوتِ غانيـةٍ وعـزف قِيـانِ

ولمطـرقُ الحـدَّادِ أبهـى منظـرًا ... مـن دفٍّ ذي طـربٍ عـلى الأوزانِ

هـاتوا طبيبًـا واحـدًا متألقًـا ... بجميـع مَـن في الأرض مـن فنانِ

وخذوا صفوفَ العـابثين جميعِهم ... لمهنـدس في أرضـنا يقظـانِ

لـو أن أهـل الغـرب كـانوا مثلَنـا ... في الـرقص والتهـريج والهـذيانِ

مـا سـيَّروا طيـارةً وسـفينةً ... أو أرسـلوا الـصاروخَ كالبركـانِ

أسفًا على قومي وهـم أحفـادُ مـن ... شـادوا صروحَ المجـد في البلـدانِ

كنَّـا بحـارًا في البحـار وربـما ... صـارت منائرُنـا نـدا الرحمـانِ

مَنْ غيرُنا كشفَ الظـلامَ ولم نكـن ... إلّا نجـمَ سـماء كـل زمـانِ

بالليـل رهبـانٌ وعنـد لقائنـا ... لعـدونا مـن أشـجع الـشجعانِ

حتى تركنا المجـدَ يهتـف صـارخًا ... أيـن الألي ملكـوا يـدي ولـساني

يـا ألـفَ أغنيـة تُخـدِّرُ جيلَنـا ... يـا ألـفَ قلـمٍ خائـب فتـانِ

هـب لي دماغًـا زاكيًـا لأرى بـه ... صُـنعَ الخبـير الواحـدِ المنـانِ

وخُذِ الألوفَ إليـك مـن أوطاننـا ... مِـن غـير مـا عِـوَضٍ ولا أثـمانِ

رفعـوا لنـا الأسـعارَ في تعـدادهم ... بـل أكسدوا حتـى الهـواءَ الـداني

عدد الحصى والرمـل في تعـدادهم ... لكـنهم كـالريش في الميـزانِ

نستورد المـصنوعَ والمـزروع والـ ... ـمنسوجَ حتـى جزمـة الولـدانِ

القِدْرُ من روما وصحنُ طعامنا ... مِن لندن والرز باكستاني

والثوبُ من أثينا وختم شماغنا ... بسويسرا والخبزُ من يوناني

ونقول: نحن أجلُّ من وطأ الثرى ... وطأ الثريا غيرُنا بثمانِ

هل كوكبُ الشرق استردت قُدسَنا ... أو حلَّ في المريخ دانٍ داني

❊❊❊

إلى عُلاة الهمم:

صفوة الرِّجال، أبناء الفاتحين، وأحفاد المجدِّدين، وسلالة القادة، وبقيَّة الأبرار، أصحاب الهمم الماضية، والهامات العالية، والعزائم السامية ذوي الآمال إلى آفاق الجلال..

كلُّ شهم منكموا رمزُ فتوّة ... السما تروي إلى الأرض سُموَّه

هِمَمٌ لو أنَّ للدهر بها ... معهدًا لم يملك الدهرُ عتوَّه

غيركم في لهوه قد جمحت ... نفسُه يهوي بها سبعين هُوَّةْ

وأراكم صفوةً صادقةً ... فيكم الحقُّ وآثارُ النبوّةْ

دعوةٌ بل صحوةٌ بل وثبةٌ ... في صفاءٍ ووفاءٍ وأخوّةْ

□ ولأنكم أهلُ الصلاح والفلاح، وأحفادُ أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ، ومنكم خالدٌ وعمر وسعد والمقداد ﷺ، ومنكم المجدِّدون والمصلحون، قلنا لكم في بطاقة سلام:

حيث الشهامةُ مضروبٌ سرادقها ... بين النقيضين من عفوٍ ومن نِقَم

وللرسالة أنوارٌ مقدَّسةٌ ... تجلو البغيضين من ظُلم ومن ظُلَم

وللأخوة آياتٌ تنصُّ لنا ... على الخفين من حُكم ومن حِكَم

وللمكارم أعلامٌ تعلِّمنا ... مدح الجزيلين من بأس ومن كرم

وللعلا ألسنٌ تُثني محامدها ... على الحميدين من فعل ومن شِيَم[1]

برقيَّاتٌ عاجلة:

□ يا أصحابَ سمو المعالي إلى العزيز العالي جلَّ في عُلاه، بإيمانهم وجهادهم وصبرهم ودعوتهم:

لَّما أنذر النملُ وحذَّر ودعا بني جنسه سُطِّرت في حقه سورةٌ من سوَر القرآن، فخذوا من النمل ثلاثًا: الدأْبَ في العمل، ومحاولة التجربة، وتصحيح الخطأ.

لَّما أكل النحلُ طيِّبًا ووضع طيِّبًا، أوحى الله إليه وجعل له سورة باسمه في الذِّكر الحكيم، فخذوا من النحل ثلاثًا: أكلَ الطيِّب، وكفَّ الأذى، ونفعَ الآخرين.

لَّما تجلَّت هِمَّةُ الأسد وظهرتْ شجاعته سمَّته العربُ مئةَ اسم، فخذوا من الأسد ثلاثًا: لا ترهب المواقف، ولا تتعاظم الخصوم، ولا ترضَ الحياة مع الذل.

لَّما سقطت هِمَّةُ الذباب ذُكر في الكتاب على وجه الذم، فاحذروا ثلاثًا في الذباب: الدناءةُ، والخِسَّةَ، وسقوطَ المنزلة.

لَّما هزلت العنكبوت وأوهت بيتها ضرب بيتُها مثلًا للهشاشة، فاحذروا في العنكبوت ثلاثًا: عدمَ الإتقان، وضعفَ البنيان، وهشاشة الأركان.

---

(١) «السمو» لعائض القرني (ص١٠- ١١)- دار بلنسية للنشر والتوزيع.

ولما تبلَّد الحمار ضُرِب مثلًا لَمن ترك العمل، ولم ينفعه العلم، فاحذروا ثلاثًا في الحمار: البلادةَ، وسقوطَ الهِمَّة، وقبولَ الضيم.

ولما عاشَ الكلب دنيئًا لئيمًا ضُرِبَ مثلًا للعالِمِ الفاجر الغادر الكافر، فاحذروا ثلاثًا في الكلب: كفرَ الجميل، وخِسَّةَ الطِّبَاع، ونجاسةَ الآثار.

وحَمَلَ الهدهدُ رسالةَ التوحيد فتكلم عند سليمان، ونالَ الأمان، وذكره الرحمن، فخذوا من الهدهد ثلاثًا: الأمانة في النقل، وسموَّ الهِمَّة، وحملَ هَمِّ الدعوة:

والهدهد احتمل الرسالة ناطقًا ... أهلًا بمَن حمل اليقين وسلَّما

□ قال أبو معاذ الرازي: «مسكين مَن كان الهدهد خيرًا منه!!».

وإذا أتى جعفر الطيار بجناحين، ودُعي أبو بكر من أبواب الجنة الثمانية وكلَّم عبد الله بن عمرو الأنصاري ربَّه بلا ترجمان، وتوكَّأ عبد الله ابن أُنيس على عصاه في الجنة ودخل بلال قصره.. فبماذا تأتي أنت؟ وماذا أعددت؟ وما بضاعتك؟..

فيا ليتَ شِعري ما نقول وما الذي ... نجيبُ به إذ ذاك والخَطْب أعظمُ؟![1]

لكن أبناء الآخرة في صعود دائمًا وتفوّق أبدًا:

□ إن العظمةَ جهادٌ وسهادٌ وجلاد، ودموعٌ وأشلاء، قال المتنبي وهو على دنيا رخيصة ليس على تكبيرة إحرام ولا على عبادة..

أطاعن خيلًا من فوارسها الدهر ... وحيدًا وما قولي كذا ومعي الصبرُ!

وأشجعُ مني كلَّ يوم سلامتي ... وما ثبتتْ إلَّا وفي نفسها أمْرُ

---

(١) «السمو» (ص١٢ - ١٥).

تمَرَّسـتُ بالآفـاتِ حتـى تركتُهـا تقولُ أماتَ الموتُ أم ذُعِـرَ الـذُّعْرُ

وأقــدمتُ إقــدام الأتيِّ كــأنَّ لي سوى مُهْجتي أو كان لي عندها وِتْـرُ

إلى أن يقول:

فـلا تحـسبنَّ المجـد زِقًّـا وقينـةً فما المجد إلَّا السيفُ والفتْكَةُ البكْرُ

وتركُـك في الـدنيا دويًّـا كـأنما تَـدَاوَلَ سـمعَ المرءِ أنملُـه العشْرُ

□ لكن الموحِّدين لهم نظامٌ في الأمنية غيرُ نظام المتنبي وأبي مسلم الخرساني والحجاج، أمنيتهم أن يموتوا على لا إله إلَّا الله، ولو كانوا غرباءَ وحيدين معزولين، كما في دفتر الزبيري:

خُـذوا كـل دنيـاكموا واتركـوا فـؤاديَ حـرًّا طليقًـا غريبـا

فـإنيَ أعظمُكـم ثـروةً وإن خلتمـوني وحيـدًا سـليبا

□ إن طريق السمو «مَشَقَّة»؛ فأوَّل السمو عندنا يبدأُ بصلاة الفجر، ومَن لا يحضر صلاةَ الفجر فليس من أهل السموِّ ولا المعالي ولا السعادة، ولو زُفَّت له الدنيا، وصَفَّقت له البنود، وهتفت له الجنود، وارتفعت عليه الأعلام، وسُدِّدت أمامه السهام.

أبدًا.. أبدًا!!

• لأن انطلاقتنا الكبرى من صلاة الفجر، من تكبيرة الإحرام، من حديث جُندب بن عبد الله البَجَلي في «مسلم»: **«مَن صلَّى الفجر فهو في ذمَّة الله، فالله الله لا يطلبنَّكم من ذمته بشيءٍ، فإنه مَن طلبه أدركه، ومن أدركه كبَّه على وجهه في النار»**.

ومن المحراب ننطلق إلى المعالي، ومَن لا يصلِّي الفجر والفروض

الأخرى جماعة -بلا عذر شرعي- فلا تظنه من أهل السعادة والسمو[(١)].

ابن عبد البر.. وما أدراكم ما ابن عبد البر:

□ ابن عبد البر مَكَثَ مع كتاب «التمهيد» ثلاثين سنةً ليلًا نهارًا، ثلاثون سنة مع الكتاب يفليه، يكتبه، ينسخه، يشرحه، ثم يقول:

سمير فؤادي من ثلاثين حجةً ... وصيقلُ ذهني والمفرج عن همِّي

□ وقد نظمت أربعة أبيات من باب التشبُّه بابن عبد البر فقط لا غير:

ثلاثون عامًا والدفاتر صُحبتي ... وقد صانني عن كلِّ لهوِ وغفلتي

ثلاثون عامًا كلما قلتُ قد كفى ... لأرتاح في داري وأحسو معيشتي

أَبتْ همَّتي إلَّا صعودًا إلى العُلا ... إذا انهدَّ جسمي صار في القلب قُوَّتي»[(٢)]

---

(١) «السمو» (ص٤٢- ٤٥).

(٢) «السمو» (ص٤٩).